أخبار اليوم
قطاع الثقافة



محمد البساطى

أسوار

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رئيس مجلس الادارة

د.محمد عهدى فضلى

أخبار اليوم
قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة - القاهرة
تليفون وفاكس
٢٥٧٩٠٩٣٠
akhbarelyom.org.eg

لوحة الغلاف للفنان:
فان جوخ

تصميم الغلاف
إسلام الشيخ

أسوار

رواية

محمد البساطى

السجن غير بعيد عن البيت، أراه بسوره المتعرج عندما أكون فوق السطح أطعم الحمام، والحركة فى ساحته الواسعة. المساجين بملابسهم الزرقاء هنا وهناك بحثاً عن دفء الشمس. ثلاثة أو أربعة بالملابس الحمراء، المحكوم عليهم بالإعدام، يتحركون بين الآخرين أشبه برايات الخطر. يسحبون خلفهم مقاطف يجمعون بها ما تقذفه زوابع الهواء من أوراق أشجار وجرايد وكراسات مدارس. يتوقف صاحب البدلة الحمراء والمقطف بين قدميه يرقبها تحلق فى الفضاء، تبعد وتقترب، تعبر السور، وتسقط أخيراً. حين تكون قطعة من جريدة يفردها، يتأملها من الوجه والظهر ثم يكورها ويرمى بها إلى المقطف، أحياناً تكون ورقة من مجلة بها صور ملونة يمسحها فى ملابسه، يلقى عليها نظرة، ويضعها فى جيبه، يكتشفها بعد قليل أثناء توقفه ويرمى بها إلى المقطف.

لم يتجاوز عددهم يوماً أربعة. ينقص فجأة. كنت أطعم الحمام وأعدهم بنظراتي. حين أجد العدد الذى أعلمه ينقص واحداً أبحث عنه فى أنحاء الساحة. أعرف أنهم لا يتحملون البقاء فى العنابر، ويستمر بحثي، وأقول إنهم لا بد أخذوه ليلة أمس، ولأن عملى فى المعتقل فلا تصلنى أخبار السجن فى حينها، ويأتى وقت لا يكون هناك غير واحد منهم، كفى مفرودة بالحب للحمام الذى تجمع حولها فى هديل خافت، أرقب

اللون الأحمر وقد توقف مستنداً لجذع شجرة صفصاف يدخن سيجارة. كانوا يصرفون له تعييناً مميزاً. قطعتى لحم بدلاً من واحدة، وحلوى، وعلبة سجائر، يأخذ تعيينه بعيداً عن النظرات التى تتطلع إليه فى فضول، وعادة ما يكون جلوسه فى ظل نفس الشجرة.

لا أحد يصدر إليه أوامر بعمل ما. هو من نفسه يبحث عن المقطف ويمضى به فى الساحة. عادة قبل اختفائه بيومين يظهر واحد أو اثنان آخران يقفان متجاورين فى الطرف بعيداً عن زحمة المساجين.

***

البيت ميري. فى بلوك من أربعة متجاورين. كان لأبى من قبل. هو أيضاً من بنى برج الحمام وعشة فراخ فوق السطح. أترك إطعام الدواجن لامرأتي، وأطعم الحمام بنفسي. يسمح لى ذلك بالنظر لمبنى السجن، يبدو مختلفاً عما أراه حين أكون بداخله، وكأننى ألمح شيئاً عابراً من نافذة قطار.

الحمام يعرف موعد صعودى إليه. أجده فى انتظاري، سرعان ما يتجمع حول كفى الممتلئة بالحبوب، يقولون إن الواحد عندما يطعمه من يده فإنه يألف المكان ويعود إليه دائماً، أحياناً يصطحب فى عودته واحدة أو اثنتين من مكان ما. حين زاد العدد وازدحم البرج أقمت واحداً آخر. وأكون فى فناء المعتقل وأرى سرباً منه يحجب للحظة أشعة الشمس حيث أقف، أتبعه بنظراتى وأراه يحط فوق البرجين. وأجدنى منتشياً أرهف سمعى لعلى أسمع صفق أجنحتها قبل أن تستقر بالبرج .

***

المرة الأولى التى أدخل فيها السجن كنت فى العاشرة. اصطحبنى أبى وكان حارساً هناك. أحواض الزهور على شكل مربعات تمتد على جانبى المدخل. صفراء. بنفسجية. حمراء، يتوسطها حوض على شكل مثلث من الزهور البيضاء، يشرف عليها مسجون يضع دائماً سيجارة خلف أذنه وأخرى مشتعلة فى فمه. يعطيهما له كل صباح كما سمعت رائد السجن، وحين أشرفت مدته على النهاية بدأ يتبعه مسجون آخر تميزه السيجارة التى يضعها خلف أذنه.

سرت مع أبى حتى الحاجز الذى يفصل السجن عن المعتقل. أعمدة حديد طويلة مغطاة بشبكة من السلك. ألمح من ثقوبها المعتقلين يرتدون ملابس بيضاء وشباشب فى أقدامهم. كانوا نظيفين حليقى الذقن بخلاف المساجين، وكان أبى استأذن ضابط المعتقل بأن يسمح لأى من المعتقلين بشرح دروسي. قال له الضابط:

- عندك. اختار.

زميل لأبى قام بالاختيار. قال:

- هو أصلاً مدرس فى الجامعة.

وضحك فى وجهي:

- مدرس خصوصي. عشنا وشفنا.!

كان يوم جمعة. فرش زميل أبى جوالاً فى ظل شجرة. ووقفا غير

بعيد.

جاء المعتقل. كان في عمر أبي، له ذقن صغيرة مدببة ويلبس نظارة. ألقى نظرة عابرة على كتاب المطالعة وسألني كثيراً من الأسئلة عن مقرراتي الدراسية الأخرى، وما أفعله طول اليوم في المدرسة والألعاب التي أحبها. حتى أصحابي سألني عنهم. وعاتبني لأنني لا أستحم إلا مرة واحدة في نهاية الأسبوع. الاستحمام لابد أن يكون كل يوم بعد العودة من المدرسة، وأشار إلى قدمي وكعبيها السوداوين. كان صبوراً على أخطائي الكثيرة في القراءة، أعطاني واجباً، قال أنه سيراه المرة القادمة.

كل يوم جمعة أمضي مع أبي إلى السجن، نشق طريقنا وسط زحام الزائرين المتجمعين أمام البوابة. للمعتقل بوابة خاصة من الجهة الأخرى. خالية دائماً. غير أن أبي كان يفضل البوابة التي اعتاد عليها، وحراس الباب الذين عاشرهم طويلاً، كانوا يوقفونه ويتبادلون بعض النكات ثم نواصل طريقنا.

ويوماً نسيت أمي أن تدمس الفول ليلة الجمعة. أيقظني أبي باكراً لأشترى الفول. المحل هناك أسفل مبنى المحطة. بجواره بقالة ومقهى.

كنت أقترب من بائع الفول حين لمحت من يشير إليَّ. كان على ما يبدو واحداً من زوار السجن الذين يأتون باكراً في القطار وينتظرون بالمقهى لحين موعد الزيارة. اقتربت منه. نهض وأخذني من ذراعي. أشار إلى كرسي بجواره:

- اقعد اشرب كوكاكولا.

- لا أشربها.

- طيب عصير؟

- ولا عصير.
- أنت ابن الأنباشي؟
- آه. ابنه.
- شفتك بتدخل معاه. إيه رأيك لو تكسب جنيه ويفضل السر بينا؟
- إزاي؟
- تأخذ جواب لواحد جوه.
- مسجون؟
- آه مسجون.
- المساجين كتير. أعرفه إزاى؟
- أى واحد منهم وهو يوصله له.
- كده صح. وآخذ الجنيه؟
- ولو جبت رد منه تاخد جنيه تاني.
- وأجيب الرد إزاي؟
- اللى تديه الجواب. قل له يجيب الرد.
- ماشي. وأجيب الرد هنا؟
- حاتلاقينى قاعد فى نفس المكان ده.

ترددت قليلاً. سألني:

- إيه؟
- أنت حاتزوره. إديه الجواب.
- شوية بس اللى بيدخلوا زيارة. والباقى يمشوا. كذا أسبوع موش عارف أشوفه.

كنت أعرف ما قاله. سألته خشية أن يكون فى الأمر ما يريب. وارتاح بالي. وارتاح أكثر حين رأيت البعض من زبائن المقهى جذبوا مقاعدهم إلينا، وهمسوا للزبون أنهم أيضاً يريدون أن يرسلوا، والزبون

رمقني متسائلاً. نظرت إليهم واحداً واحداً، وقلت:

- ماشي. الجواب بجنيه والرد بجنيه.

واتفقنا أن أذهب لشراء الفول وأمر عليهم في عودتي وآخذ الجوابات.

في البيت أخرجت سبعة جنيهات. وضعتها أمام أبي وأنا أكتم زهوي.

حين عرف الحكاية قال:

- اقعد.

قعدت بجواره. أمسك بالجوابات وقلبها في يده. كانت مغلقة. تحسس ما بداخلها. وأرشدني إلى ما أفعل. ما أن دخلنا السجن حتى أفلت يدي ومشى إلى مربعات الزهور. كان يكلم المسجون الجنايني ويشير بيده إلى الزهور البيضاء، ثم عاد. وقف يكلم حارساً قرب البوابة، ومضيت إلى مربعات الزهور. المسجون الجنايني كان منحنياً وظهره لي. سحبت الجوابات من الفانلة الداخلية وأسقطتها في الفوطة المفرودة بجوار يده. لفها ودسها في جيبه. قطف زهرة صغيرة بنفسجية ومدها لي. قال في صوت خافت وهو يشير إلى الزهور:

- حا يقابلك وأنت راجع ومعاه الرد.

أومأ خفيفاً نحو المسجون الذى يدربه.

وقد كان.

مضيت بالردود إلى الزوار. كانوا ينتظرون في المقهى.

يوقظني أبي باكراً كل يوم جمعة. أمضي لشراء الفول. كثر عدد الزبائن. وصل إلى خمسة عشر. الجوابات يدسها أبي تحت فانلتي الداخلية قبل خروجنا.

تناولت أخيراً وجبة البيض بالبسطرمة التي كنت أتشوق لها. وجيلاتي أيضاً. أحضر علبة منه عند رجوعي بالفول. اشترت أمي

قماشاً لجلبابين لها. وزاد نصيبى من اللحم والفراخ أثناء العشاء. وبدأ أبى يتنازل لى من وقت لآخر عن الكبدة والقونصة حين تضعهما أمى أمامه أثناء الأكل. قبل ذلك كان يتغافل عن رغبتى فيهما. أحياناً تكون الطيور فى غداء الجمعة وأجد أبى يزفر من حين لآخر. تمتد قدمه تحت الطبلية باحثة عن قدم أمي. أسحب قدمى بعيداً عن مسارها. كنت كبيراً بما يكفى لأعرف ما يجرى. وأرى أمى ترتشف معلقة الشوربة مسبلة عينيها وتجفف جانبى فمها بلقمة عيش. يتنهد أبى بعمق بعد الأكل مسترخياً بظهره، يسلك أسنانه بنتفة من الحصيرة. وتقول أمى بصوت كالغناء:

- خلصت على الحصيرة.

يرد لاعقاً شفتيه:

- نجيب غيرها.

وقبل أن يأمرنى بالخروج لشراء حاجة أقول إننى ذاهب لشراء عود قصب من عند المحطة. ويقول:

- مصه هناك. المصاصة بتوسخ البيت.

يدخل حجرته أخيراً وأنا مازلت بحجرة القعاد. وتمضى أمى إلى الحمام. أسمعه بعد قليل يناديها من الحجرة. ترد عليه:

- أيوة يا حاج جاية.

هو لم يحج. تطربه الكلمة. وأتخيله راقداً فى السرير يهز قدميه المتعانقتين.

باب حجرتهما لا يغلق من الداخل. ترباسه مكسور. سنتان وأكثر وهو يقول إنه سيصلحه. أسمع صوت أمى الهامس:

- إيه يا حاج. الواد لسه ما خرجش.

- البسى القميص الأحمر.

- كل مرة الأحمر.اشترى واحد تانى يساعد معاه.

ويسكتان. هما ينتظران أن يسمعا صوت خروجي. أفتح الباب الخارجي وأغلقه ورائي.

ويوماً سمعته يقول لها:

- الشيخ النهاردة بيقول..

- شيخ مين؟

- شيخ الجامع اللى فى السجن. بيعمل درس للمساجين كل أسبوع. قال لهم لا تنكحوا على امتلاء.

كنت فى حجرتي. سمعت الكلمة وكتمت الضحك. أمى سألت:

- وبيقول الكلام ده ليه؟

- مسجون سأله عن أنسب وقت للعملية.

- ويتكلم فى الحاجات دي؟

- من أول درس له يكلمهم عن جهنم وعذاب النار، واللى بيشوفه أهلها. الواحد منهم بعد ما يتحرق ويبقى فحم ربنا سبحانه يحييه تانى عشان يعذبه. والمساجين يسمعوا الكلام ويروحوا فى النوم. هو متربع على دكة وهم مقرفصين على الأرض يعلو شخيرهم. نمشى بينهم ننخسهم، يصحوا شوية وبعدين يناموا. قلت للشيخ ما تشوف موضوع تانى للدرس. فكلمهم عن النسوان.

- النسوان. يا خبر. بيقول إيه؟

- ياما قال. عايزة تعرفى ليه؟

- آهو. أعرف.

- ما أنت عارفة كل حاجة.

- إيه يا حاج. ومين يعنى اللى عرفني؟

- الشيخ قال الكلام ده وأنا بعد الدرس سألته: إيه العيب فى أنه يكون

على امتلاء؟ قال لى مكروه. وأنا قلت بأمارة إيه مكروه؟ أنا بحب أعمله على امتلاء. قال أن كل ما هو ضار مكروه.

- والنبى شيخك ده ما فاهم حاجة فى الدين. أنا كمان بحب على امتلاء.

أمشى فى السجن غير خائف رغم الحكاوى التى سمعتها عن المساجين من أبى وأولاد الحراس الآخرين. أحس زهواً حين أرى هؤلاء الخطرين يلتفتون لينظروا نحوى وأنا أسير خلف أبي، لا تبدر منهم تحية ما – بعدها بسنوات فهمت أنه قد يساء تأويلها – تخيم عليهم لحظات سكون وانفراجة خاطفة تلين معها وجوههم الجامدة وكأن فى مشيتى بالبيجامة ما يذكرهم بالشوارع.

ويوماً كنت مع أبى فى نفس المشية، كان يتقدمني، مال مع نهاية العنبر ليسير إلى الجانب الآخر فى اتجاه الحاجز الذى يفصلنا عن المعتقل. كدت أتجاوز باب العنبر المفتوح عندما كتمت يد فمى وأحاطت ذراع بوسطى وجذبتنى إلى داخل العنبر. أطبق فم على فمى يلعقه فى عنف. كنت أزوم وأعافر، ثم أطلقتنى اليدان، ولمحته يعدو مبتعداً داخل العنبر. اندفعت خارجاً أمسح فمى بكم البيجامة لأزيل الرائحة الكريهة. جريت إلى أبي، ثم أبطأت متلفتاً حولي. لا أدرى ما جعلنى أخفى عن أبي، وكنت حريصاً بعدها أن أجاوره أثناء مشينا فى السجن.

***

خلفت أبى فى السجن بعد إحالته للتقاعد. حين أيقن من فشلى فى التعليم أخرجنى من المدرسة. وحتى بدون فشلى ما كان راتبه يتحمل نفقات التعليم فى الجامعة. سعى فى مصلحة السجون لتعيينى فى نفس السجن مثل آخرين من أبناء الحراس القدامى، وظل عاماً بعد التقاعد يتردد على السجن، يلبس البالطو الذى تزوج به فوق جلباب ويقعد مع زملائه السابقين خارج البوابة. يحدق فى وجوه الزائرين، ربما ليرى إن كانوا يتذكرونه.

وجاء يوم أصابه الخبل. لم يأت المرض فجأة. كنت فى مشاغلى لا أنتبه إليه. أمى قالت باكية:

- والنبى كنت حاسة من وقت أنه موش هو اللى أعرفه.

لحق باثنين آخرين من الحراس المتقاعدين كانا من جيراننا وفى نفس الحالة.

يمشى الثلاثة بملابسهم الميرى متجاورين وسط البلوكات كما اعتادوا وقت أن كانوا فى الخدمة، يقصدون الخلاء حيث تتجمع أشجار فوق ثلاثة تلال متجاورة. لا أحد يدرى ما يفعلونه هناك. البعض كان يلمحهم وهم يعدون بين الأشجار وصياحهم يترامى إلى البلوكات. والبعض قال إنهم كانوا يلعبون ما يشبه لعبة الاستخفاء. ثم ينفرد كل منهم بتل فلا يراهم أحد، ويتنادون مقلدين أصوات الحيوانات.

كان خبلهم ودوداً. غير خطر، نوبات من المرح الصاخب، مندفعين لا ينتبهون لما حولهم. ساروا يوماً وراء امرأة زميل لهم كان أصغر منهم سناً ولا يزال فى الخدمة، كانت فى طريقها لبيت جارة فى نفس البلوك، تلبس جلباب بيت ضيق يبرز مؤخرتها الثقيلة، راحوا خلفها يحاكون مشيتها. مد واحد منهم يديه يوقف رجرجة المؤخرة وتبعه الآخران. المرأة صرخت وهم صرخوا. خلعت فردة الشبشب وسعت لضربهم، وقفوا ساكتين ينظرون إليها. أمسك زوجها يدها المرفوعة وقد جاء جرياً على صراخها، وزعق:

- حا تضربى مين يا بنت الكلب.

سحبها فى عنف من ذراعها وسط دهشة الواقفين، وكانوا على ما يبدو يتوقعون منه غير ذلك.

تحرك الثلاثة وراءهما. وجوههم غير حليقة، علق بشعرها نتف من أوراق الشجر الجافة، وملابسهم الميرى ملطخة بالوسخ، التفت زميلهم ويده لا تزال ممسكة بامرأته، هز رأسه وابتسم خفيفاً. وقفوا يبادلونه النظرات، حاولوا أن يتكلموا، مرة وأخرى، أفواههم مفتوحة، ووجوههم محتقنة، ثم خرجت أصوات أشبه بالمأمأة. سكتوا. استداروا مبتعدين. من يومها أصابهم الخرس.

يقفون ساعة العصر كل على تل فى مقدمة الأشجار. يلقون بنظراتهم تجاه البلوكات والسجن، يقذفون بقطع الحجارة، يرقبونها تتدحرج قليلاً ثم توقفها الرمال. تعجبهم اللعبة فيقعدون ويبحثون عن الحجارة حولهم، ينزلقون من فوق التلال ليجمعوا ما قذفوه من حجارة ويصعدون بها.

يغادرون التلال مع الغروب بعد أن يطلقوا ما سماها البعض صيحة الحرب، وقد تسلح كل منهم بفرع شجرة وخلع حذاءه الميرى وعلقه على كتفه. يمشون متجهمين مشدودى القامة وكأنهم فى طابور التمام.

يأخذون دورة حول سور السجن بصياحهم المتقطع الشبيه بالمأمأة، ربما كانوا ينادون زملاء لهم بالخدمة، بعدها يتجهون إلى مبنى المحطة.

كان هناك من يصيح بأسمائهم بعد أن يمروا ولا يلتفتون، وعربات تمضى بين مبانى البلوك اختصاراً للطريق، تطلق التنبيه ولا يلتفتون، هم فى مشيتهم يتهامسون وقد اقتربت رؤوسهم، ويضطر السائق للنزول ويوقفهم بجوار الحائط حتى يمر. ويظلون فى وقفتهم حتى بعد أن ابتعد. ويلمحهم واحد صدفة ويقف ليكلمهم. ينصتون له قليلاً ثم يواصلون طريقهم.

***

يوماً هبطوا من التلال، واتخذوا طريقهم المعتاد إلى المحطة. كانوا يمشون بجانب السجن وفوجئوا بالمأمور أمامهم. كان خارجاً فى طريقه إلى السيارة التى تنتظر والسائق بجوار بابها. رآهم وتمهلت خطوته، ربما لم يعرفهم، غير أن ملابسهم الميرى لفتت نظره. وجهه جامد لا يفصح، استقرت عيناه على الأحذية المدلاة من فوق أكتافهم. اندفع السائق نحوهم ملوحاً بيديه ليبعدهم. نظروا إليه وعادوا بنظرتهم إلى المأمور. وقفوا متجاورين وقفة انتباه ورفعوا أيديهم بالتحية العسكرية.

اقترب المأمور منهم وسأل الأول عن اسمه.

كان أبي. مأمأ وسكت.

تقدم السائق وقال إنهم لا يتكلمون.

بحث المأمور فى جيوبه، بدا أنه لم يجد ما يبحث عنه، كانت علبة السجائر فى يده، مدها إليهم. تراجعوا، مدها أكثر، تراجعوا مرة

أخرى، ثم استداروا مبتعدين.

صدر أمر المأمور بعدها بمنعهم من ارتداء الملابس الميرى لما يلحق بها من مهانة. كما أنه لا يجوز لهم استخدامها بعد التقاعد.

أخفت أمي الملابس. بحث عنها أبى فى أنحاء البيت. وأكون غادرت إلى السجن، ينتابه الغضب ويقلب المقاعد ويرمى المراتب والمخدات، أحياناً يعثر عليها، وأحياناً تعطيها أمي له وقد خشيت من بعثرة كل شيء. من يجد بدلته يذهب لمساعدة زميليه، مقتحماً البيت الآخر ويشارك رفيقه فى البحث، ينحيان المرأة جانباً حين تحاول إيقافهما. فى النهاية يمضى الثلاثة بملابسهم الميرى فى جولتهم.

الأوامر أوامر. جمعت وابنا زميليَ أبى ملابسهم الميرى ووضعناها فى كومة خارج البلوك ورششنا عليها قليلاً من الجاز وأشعلنا فيها النار بحضور الثلاثة الذين تحلقوا حولها ينظرون فى فضول إلى اللهب، ويتابعون موجات الدخان تتصاعد وتحلق. ورأوا الملابس تتحول إلى مزق سوداء. تبعونا فى صمت إلى البيوت.

ومن كان يظنهم بهذا الذكاء؟

اختفت بدلة لواحد من جيراننا كانت منشورة على حبل غسيل خارج النافذة الأرضية. ارتفع زعيق امرأة الجار فى الشارع. لم تتهم أحداً بالسرقة. ومن يسرق بدلة ميري؟. بعد يومين اختفت بدلة جار آخر من الغسيل أيضاً. لم يرتفع زعيق هذه المرة. وقبل أن ينتبه أحد إلى ما قد يفعله الثلاثة اختفت البدلة الثالثة. ورأيناهم وقد عادوا إلى ارتداء الملابس الميرى فى تجوالهم. واحدة منها كانت ضيقة على صاحبها، ترك الأزرار مفتوحة. وأين ما كانوا يلبسونه؟ عثر عليها واحد متناثرة بين الأشجار فوق التلال الثلاثة.

حين خلعوها فى الليل أخذناها – وكانوا يخفونها تحت المرتبة التى

يرقدون فوقها – وأعدناها إلى أصحابها وأخبرناهم بذلك. استمع أبى لما أقوله وعيناه تنظران إلى النافذة، ثم تركنى إلى الفراش.

يومان، ورأيناهم بالملابس الميرى مرة أخرى، ولم يعلق أحد من الجيران عن فقد بدلته، بعدها أخبرنى واحد من حراس بوابة السجن أنه من أعطاهم البدل بعد أن طلبوها منه. بدل قديمة جاء بها من المرتجع فى المخزن، وطلب منى ألا أتكلم حتى لا يبلغ الخبر المأمور فيبطش به، ورجانى أن أترك أبى فى حاله فهو لا يؤذى أحداً.

***

ماتت أمى فى هذا الوقت، ربما من حسرتها. كانت تنتظر عودته فى الليل. تحممه وأسمع بكاءها فى الحمام، وتطعمه بيدها وهى تغنى له، تمسح ما يسيل من فمه. عيناه على وجهها لا تفارقانه، وعندما تتلفت على صوت أو باحثة عن شيء يميل رأسه لينظر معها، وتصحبه إلى الفراش وتحتويه بذراعيها. يستكين فى حضنها ويروح فى النوم.

حين يتأخر فى الخارج أكثر منِ اللازم. أمضى مع زميليَ للبحث عنهم. عادة يقعدون على دكة من الخشب فى نهاية رصيف المحطة بعيداً عن أضوائها، ينظرون إلى القطارات تأتى وتتوقف و وتنطلق، ويمر عليهم بائع القصب. ونراهم وقد أمسك كل منهم عوداً يمصه، وعند أقدامهم كوم كبير من المصاصة لابد أنها تخلفت من عدة عيدان. حين يلمحوننا يتوقفون عن المص، يرمى كل منهم ما تبقى من عوده ويقفون كالمذنبين، ثم يتبعوننا، يتهامسون فيما بينهم بأصوات لا نفهمها. وقبل أن نغادر مبنى المحطة نمر على بائع القصب الذى يكون فى انتظارنا، يرد لنا الساعات التى أعطوها له مقابل ما أخذوه من عيدان، وندفع له ثمن القصب ونمضى.

ويوماً كانوا يلهون على قضبان السكة الحديد بعد مص القصب. الوقت ليل، والمحطة تكاد تخلو، اثنان على دكة فى الطرف الآخر أخذهما النعاس. ابتعد الثلاثة. بلعتهم الظلمة، يتردد صدى ضحكاتهم، واحد منهم يمشى بين القضيبين، الآخران سار كل منهم على قضيب يبدل بقدميه مستنداً على كتف الأوسط الذى راح يطلق صوتاً أشبه بصفير القطار، والقطار قادم من ورائهم وضوؤه يبدد العتمة، كانوا يمرحون وقد ضاعت أصواتهم وسط الضجيج المقبل.

أيام قليلة بعد رحيلهم وظهر الخبل على واحد من المتقاعدين الجدد، لم يكن مضى على تقاعده أكثر من ستة شهور، وتبعه ثلاثة آخرون كانوا يمشون فى البداية بين البلوكات مترددين، يتلفتون كثيراً حولهم وكأنهم لم يروا المكان من قبل، وكل يمسك بيد الآخر، ثم عرفوا طريقهم إلى الأشجار فوق التلال، ويقال أنهم عثروا هناك على آثار من سبقوهم. حبل مشدود إلى فرع شجرة فى شكل أرجوحة، ثلاث حفر عميقة متجاورة كالخنادق بداخلها بقايا أكل عفن كانوا يأخذونه على ما يبدو من البيوت قبل انطلاقهم فى الصباح ويحشون به جيوبهم.

هتف مأمور السجن مشدوهاً حين سمع بخبرهم:

- إيه الحكاية؟

وقال: والهدوم الميري؟ اخلعوها المرة دى.

ويوماً كنت واقفاً بساحة السجن أرقب بعض المساجين يتهامسون فيما بينهم، ورأيت زميلى عبد الستار يمشى على مهل وبيده أوراق إخلاء الطرف حيث كان ينهى إجراءات إحالته إلى التقاعد. تصفح الأوراق مرة أخرى، ودقق النظر فى بعضها. بدا كأنما يكلم نفسه. نظر إلى قرص الشمس الساطع. نظر طويلاً رغم حدة الضوء، ثم التفت ورآني. تأملنى قليلاً وسار نحوي. وقف لحظة ساكتاً. ثم سألني:

- والدك فين؟

- والدي؟

انتبهت. رحت أنظر إليه. قال:

- زمن طويل ما شفتوش.

وجهه هادىء. ساكن. عيناه فقط تتحركان كثيراً، ينظر لكل ما حوله فى وقت واحد. قال:

- آه صحيح. ليه لأ؟

أطرق ساكناً. يتأمل حذاءه. قال:

- واحدة أكبر من التانية. ربنا خلقنى كده. حاقول له إيه؟ خذها وهات واحدة مقاس التانية. مايصحش. يزعل. قلت يا عبد الستار تعال على نفسك. أحط خرقة فى الفردة قدمى تستريح. وآهى ماشية. امسك دى.

مد لى الأوراق. ترددت. قال بحدة:

- امسك.

ومسكتها. تركنى ومضى. ناداه نقيب المعتقل وكان يقف قريباً:

- عبد الستار؟

لم يلتفت. ناداه مرة أخرى. ظل فى مشيته متجهاً إلى البوابة. الحارس هناك نظر إليه والتفت إلى النقيب، كان حائراً، تراجع خطوه مفسحاً لعبد الستار.

بلغنى بعدها أنه لحق بالأربعة.

***

قلت لأبى قبل مرضه إنى كنت أريد المعتقل.

قال: المعتقل لا يتبع مصلحة السجون وإنما أمن الدولة. ولا علاقة له بهم. وقال:

- وماله السجن؟ بعيد عن وجع الدماغ. وفيه رزق موش فى المعتقل.

ربما كان يقصد الجوابات التى كنت أقوم بتوصيلها للمساجين، غير أن ذلك كان من زمن وأنا صغير، وهو ما لا أجرؤ على القيام به بعد استلامى العمل. أشياء أخرى عرفتها بالصدفة. كان هناك من الزوار المتجمعين خارج البوابة من يدس ورقة صغيرة مطوية بجيبه فى الخفاء ونحن نشق طريقنا وسطهم للدخول أيام كنت أرافقه فى إجازتي، وأراه فى نصف إلتفاتة ينظر خطفاً للوجوه المتطلعة إليه، ألمح من بينها وجهاً يومئ خفيفاً، ونكون دخلنا وابتعدنا عن البوابة ويخرج الورقة ويفردها. يعيد ما بها من نقد إلى جيبه. ويقرأ ما بالورقة ويمزقها قطعاً صغيرة تظل فى يده ليلقيها فى برميل القمامة.

ومرات يأتى إلى البيت نسوة مع بداية الليل. تلبس الواحدة منهن طرحة تخفى بها نصف وجهها. عادة كنت أفتح لها الباب. تسألنى عن أمي. أدخلها إلى حجرة القعاد حيث تشاهد أمى التليفزيون، ويتسحب أبى إلى غرفة النوم. أسمعها خلال باب حجرتى الموارب. تحكى

المرأة عن زوجها الذى سجن ظلماً ولا تشير إلى تهمته. وتطلب منها أن توصى به أبي، فلا يضربه الحراس، وإن أمكن بطانية زيادة لأنه يبرد فى الليل:

- يعنى يراعيه شوية.

وتعدها أمى بأن تخبره وهو سيقوم باللازم.

تغادر المرأة وأمى ترافقها إلى الباب وتغلقه. لابد أن أبى سمع أيضاً ما قيل من كلام. كان يظهر فى حجرة القعاد وأمى تلتقط المظروف الذى تركته المرأة على الترابيزة، ويقف منتظراً أن تنتهى من إلقاء نظرة على ما به من نقود. وتقول ضاحكة:

- خذ. شوف أنت.

ويمضيان إلى غرفتهما.

فيما بعد عرفت من عملى فى السجن أنه كان من الصعب على أبى أن يفى بما طلبته النسوة من أمي، كذلك أصحاب الورقات التى تدس فى جيبه. أقصى ما كان يستطيعه أن يقول بعض الكلمات العابرة للمسجون وبعد أن ينظر حوله:

- إيه. على فين؟ فيه ناس بتوصى عليك. امشى بقى كويس. هانت.

هو لا يخشى الحراس. فالكثير منهم مثله، لكنها العيون من المساجين. كانوا ينقلون إلى الضابط ما يرونه ويسمعونه مقابل أن يسند إليهم الأعمال المريحة فى السجن. كنت أفاجأ من وقت لآخر بتوقيع الجزاء على البعض من الحراس. كانوا يتكتمون ما جرى فى التحقيق ولا يشكون.

نصحنى أبى فى بداية عملى أن أظل دائماً على مسافة من المسجون:

- لا تهزر معاه ولا يهزر معاك. ولا تعاديه ولا تضربه بدون سبب.

سيتقبله منك إن كان مخطئاً. وأن يكون الضرب غير مهين. ولا تستخدم قدميك.

في تاريخ السجن ستة قتلى من الحراس، وتسع إصابات من مطاوي. والفاعل دائماً مجهول. غير الجروح المستمرة من قطع حجارة وزلط تصيب الواحد منا في مؤخرة الرأس.

لم أفاجأ في بداية تعييني بما أراه في السجن. أبي حكى الكثير. العلاقة بين مسجون وآخر. كانت منتشرة، أراهما يمشيان سوياً، ويشربان الشاي متجاورين عند الكانتين، ويدخنان نفس السيجارة. حين أقوم بتوزيع العمل في الصباح كنت أراعي أن يكون الاثنان معاً.

ويوماً كاد عنبران أن يشتبكا. كان مسجون في الثامنة عشرة سبق له أن هرب أثناء تجنيده، وحكم عليه بالسجن باقي مدة تجنيده. ألحق في التوزيع بالعنبر (أ). وصل احتجاج العنابر الثلاثة الأخرى إلى مأمور السجن، أصدر قراراً بتعديل قرار التوزيع السابق ومفاده أن يقضي السجين المذكور أسبوعاً في كل عنبر بالتناوب، واستقر الأمر.

العنابر الأربعة تتبارى في الاهتمام بالفتى. الفرشة النظيفة، والمكان المريح في العنبر. يغسلون هدومه وينشرونها في مكان مشمس بمدخل العنبر بعيداً عن هدوم المساجين التي تنشر على فروع الشجر أو قطع الصخور عند السور. مواد النظافة والتجميل التي تهرب من الخارج. معجون أسنان. صابون. مناديل ورقية معطرة وكريم لترطيب البشرة – هم لا يستخدمون هذه المواد، ولا يسعون لامتلاكها، وإن وجدت صدفة بين يدي الواحد منهم ينفر من استعمالها – كانوا أيضاً يضيفون إلى تعيينه من تعيينهم ويدفئونه لإذابة الشحم المتجمد على سخان "التوتو" الذي يصنعونه في العنابر. ويقومون بعد إجراء التمام بحصته في العمل.

كنت أراه قاعداً على حجر مسطح بجوار الكانتين – أصبح معروفاً أنه الحجر الذى يقعد عليه فلا يقربه أحد فى غيابه – وعلى حجر آخر مجاور له أصابع شيكولاته وعلب عصير يشتريها المساجين من الكانتين، ويقفون بالقرب منه يضاحكونه. كان يوزع ابتساماته الصغيرة عليهم مسبلاً عينيه، مجففاً فمه عقب كل جرعة عصير بالمنديل المعطر ويده متراخية على فخذه، ثم يضع قطعة اللبان فى فمه. يلوكها فى بطء، تتوقف حركة فكه لحظة ثم تعود، وأرى وجوه المساجين فى سكونها تتطلع إليه.

يدهشنى ما بدا على الولد من نضارة فى شهور قليلة، وكان يوم مجيئه شاحباً هزيلاً.

ذات صباح باكر ذهب مسجونان من العنبر (ب). لاستلام الفتى من العنبر (أ). كان اليوم بداية الأسبوع الذى سيقضيه عندهم. رفض مساجين العنبر (أ) تسليمه، ولم يسمحوا لهما بالدخول للكلام مع الفتى فهو لا يزال نائماً.

قالا: ننتظر حتى يصحو.

قالوا: حتى بعد أن يصحو لن يذهب معكما.

- كده؟

- آه كده.

كانوا يتناقشون قاعدين أمام العنبر. ونهض الاثنان دون كلمة أخرى وابتعدا.

لحظات وجاء خمسة من العنبر (ب). كان البعض من عنبر (أ). مازالوا فى قعدتهم.

قال واحد من الخمسة وكان أكبرهم سناً:

- خير؟

- خير.
- ده ميعادنا.
- وبعدين؟
- ناخد الولد.
- بعد يومين.
- ولا ساعة. فيه اتفاق.
- بعد يومين.
- ده آخر الكلام؟
- آه.
- راجع نفسك.
- راجعت.
- طيب نشوف.

كان ذلك بمثابة إعلان الحرب.

الخطر تفوح رائحته. يشمه القريبون مهما بلغ التكتم. العنبران (أ) و (ب) لا حس ولا خبر. لا أحد يخرج أو يدخل، والشرر يتطاير. نحن الحراس أسرعنا نحمل العصى الرسمية، والبعض أخذ مكانه خلف المتاريس حول العنبرين وبيدهم السلاح. الخبر طار إلى مأمور السجن الذى نهض من خلف مكتبه مغمغماً:

- عارف إن ده حايحصل.

قوة الحرس لا تكفى لوقف الاشتباك والفصل بين العنبرين، والمأمور أصدر أوامره بعدم حمل العصى أو أى سلاحٍ. أتخيل الولد هناك فى الطرف البعيد من العنبر (أ) لا يدرى شيئاً عما يجري. هم لن يخبروه حتى لا يزعجوه متربعاً على فرشته يحصى علب العصير والشيكولاته واللبان التى عاد بها من الكانتين الليلة الماضية،

يرصها متجاورة ويغطيها بقطعة قماش نظيفة، يشرب ما تبقى فى كوب الشاى بالحليب الذى حملوه إليه عند يقظته، فهو يحب أن يغير ريقه قبل الفطور، استبدل سترته بأخرى نظيفة استعداداً للتمام، ومشط شعره مستعيناً بشريحة مرآة معلقة بالجدار جنبه، ثم التفت ينظر حوله. مكانه يتصدر العنبر، فوق رأسه قرب السقف نافذة صغيرة ترسل ما يكفى من الضوء والشمس إلى فرشته وكانت تبعد خطوتين عن مراقد المساجين.

كانوا فى حركتهم العادية مثل كل صباح. لا يشغلهم تربص العنبر (ب). سمعوه يتثاءب، وكان يمط جسده على الفرشة، رأوا الجسد الفتى مفروداً فى هالة الضوء. والكتفين النحيلتين تتحركان خفيفاً. أشرقت وجوههم الجهمة وابتسموا فى رضى، ثم سمعوا صفارة التمام.

تم توزيعنا نحن الحراس هنا وهناك مع تكتل مجاور للعنبرين (أ) و (ب).

اصطفت طوابير العنابر الأربعة فى ارض التمام.

جاء المأمور وخلفه ثلاثة ضباط. وقف صامتاً حتى سكتت الحركة.

قال:

- يظهر أننى تساهلت معكم زيادة عن اللازم.

صمت، ثم قال:

- مفيش أسهل من الرجوع للضرب والجلد.

صمت مرة أخرى وقال:

- كل اللى حصل بلغني. واللى إنتم ناويين تعملوه بلغني. فين الولد ده؟ تعال هنا.

خرج الولد من طابور العنبر (أ)، سرت همهمة خافتة بين أفراده أسكتها المأمور بنظرة صارمة. مشى الولد فى اتجاهه حتى خرج من

الطوابير. صاح المأمور:

- قف. بصوا له كويس.

الولد استدار. وقف متراخياً فى مواجهتهم. قال المأمور:

- هى ساعة زمنٍ وأرحله لأى سجن تانى.

قال بعد صمت.

- عنبر (ب). عايز أسمع صوتك.

خرج سجين من طابور العنبر (ب). كان على ما يبدو الأكبر سناً. قال:

- يا أفندم فيه اتفاق. رحنا ناخده فى الميعاد. ولا سألوا فينا.

نظر المأمور ناحية طابور العنبر (أ). خرج منه مسجون وقف مثل الآخر. كان هو أيضاً الأكبر سناً. قال:

- يا أفندم الاتفاق على العين والراس. بس الولد عيان. قلنا يومين وياخدوه.

قال المأمور: عيان عنده إيه؟

- بيكح يا أفندم.

- بيكح؟

- أيوه يا أفندم.

- يروح العيادة.

- سألنا عبده التومرجى قال يشرب حاجة سخنة.

- وبعدين؟

- قلت لهم يومين بس يشد حيله ويروح معاهم.

قال عجوز العنبر (ب):

- عيان. كنا حانشوفه ونعمل له اللازم. وبعدين ده موش عدل ياخدوا من حسابنا يومين.

- وموش عدل تهملوه كده.

- نهمله إزاى؟

- آخر مرة أخذناه من عندكم. سبع قملات فى رأسه. غير اللى فى هدومه. والبراغيث. يا أفندم لا بيحموه ولا بيغسلوا هدومه.

- شوفوا الكلام بقى؟

رفع المأمور يده منهياً النقاش، وأصدر قراره بأن يبقى الولد فى العنبر (أ) يومين على أن يخصما من مدتهم فى المرة القادمة.

وأشار بالانصراف.

يخطىء من يظن أن المأمور كان يعبث مسلياً نفسه. ومن أنا لأحكم على تصرفاته؟ غير أننى رأيت كيف نزع الفتيل. لا أحد يعرف ما كان سيحدث غيرنا نحن الحراس، وسنكون أول الضحايا لو جرى الاشتباك، هم سيتبادلون الضرب قليلاً فى البداية، ثم ينفجر ما بداخلهم من براكين، يشعلون الحرائق فى أنحاء السجن بداية بعنابرهم ويقتلون الولد وكل من يلتقون به وقد تبخر ما بينهم من خلاف.

قال زميلى وكنا فى طريقنا لتناول الفطور بعد التمام:

- كده كويس.

- كويس قوي. الواحد أخذ نفسه. شفت الولد؟

ضحك:- آه شفته.

- ولا باين عليه تعب.

ضحك مرة أخرى:

- تكون فاكر أنهم بيناموا معاه كل ليلة؟ واحد وراء الثاني. كنت زيك. سألت الولد على جنب، وسألت مساجين. ممكن يمر الأسبوع فى العنبر ولا واحد يقرب منه. هو اللى يطلب. ومن ينام معه مرة لا ينام الأخرى. وكل أسبوع واحد حتى لا يتعبوه.

- زينة يعني؟

- حاجة شبه كده. زجاجة ملونة شافوها في الحوش. غسلوها وحطوها في العنبر. وتبقى بتاعتهم.

ثمة سجين يسميه المساجين " عجينة " فيما بينهم. يقولونها بلا ازدراء. وينادونه باسمه "صلاح". كان يغار من الولد، ويطلق عليه الكثير من الأوصاف التي لا تسر، وكانت تبلغنا. راح يتحرش بالولد. يعترض طريقه ويهمس له بكلام لا يسمعه غيره. يتوقف الولد ويرمقه بقرف ويقول:

- عايز أمشي.

- على فكرة يا حلوة. يا خيارة مخللة. تمشي معايا؟

- عايز أمشي.

ومد يده يوماً وجذب الولد من سترته، فوجيء بأيدٍ كثيرة ترفعه وترمي به جنباً.

ومشى الولد.

عجينة لم يسكت. كان يقذف الولد كلما رآه بطوبة، وفلت عياره، راح يدهن شعره بالزيت ويفرقه من النص، ويهز مؤخرته أثناء المشي، ويلوك اللبانة مثل تحية كاريوكا في فيلم رأيناه من أسبوع، وينفخها على شكل بالونة صغيرة ثم يسحبها بلسانه. وفلت عياره أكثر فراح ينتف شعر ساقيه بالحلاوة، ويسير مشمراً إحدى رجلي البنطلون كاشفاً عن ساق بضة ممتلئة. صاحبه "فارس" وكان غليظاً برقبة ثور مبهور بما استجد على صاحبه من تغيرات، يسحبه في شدة من بين المساجين ويختفيان في العنبر. المساجين يخشون التودد إلى عجينة. فارس أعلن من قبل أن عجينة صاحبه، وكان سريعاً في الضرب بالمطواة، لا ينتظر انتهاء الكلام. وسبق أن أصيب ثلاثة من المساجين

حاولوا الالتصاق بمؤخرة عجينة فى دورة المياه. وخيطت جراحهم فى العيادة، ورفضوا فى التحقيق أن يتهموا أحداً.

أصيب الولد أخيراً بحجر فى رأسه، انحنى فى ألم يتحسس الإصابة بإصبعه. وعجينة وقف غير بعيد متحدياً يرمى بحجر ويلتقطه. وضع المساجين قليل من البن على جرح الولد. ووقفوا ينظرون إلى عجينة، وكان هناك من اقترح الكلام مع فارس. وذهبوا إليه.

كان قاعداً فى الظل أمام باب العنبر يشرب الشاي. وجلسوا. ظهر عجينة. وقف غير بعيد يلعب بالحجر، وفارس رآه وانفرجت شفتاه فيما يشبه الابتسام، ثم التفت إلى المساجين:

- عايزين إيه؟

حكوا له ما حدث للولد. بدت على وجهه مسحة من غضب. وقال:

- ولدكم لا يملأ عيني.

لم يردوا.

رمى تفل الشاى من الكوب بجواره، وغطاه بالتراب. قال:

- اللى حصل لا يرضيني. ولا يرضى أحداً. حاشوف.

طمأنهم بأن صاحبه لن يلمس الولد بعد ذلك.

نادى عجينة الذى اقترب متمايلاً. نالته لكمة قوية على ظهره. زمجر فارس.

- ادخل.

دفعه إلى داخل العنبر وهو فى أثره.

عجينة نال العلقة وفلت عياره أكثر وأكثر. لم يعجبه أن يضرب ويهان بسبب ولد لا طعم له ولا لون، كان يختفى من الساحة بالساعات، وفارس يبحث هنا وهناك، بمشيته العجيبة، منفوخ الصدر، لا يتحرك فيه غير ساقيه، وعجينة سعى إلى علاقات أخرى خاطفة. كان يطمئن

المسجون بأن الجن نفسه لن يعرف، يصحب صيده إلى مكان ضيق خلف حجرة الإعدام لا يقترب منه مسجون. الحارس الواقف بسلاحه وخوذته فى كشك فوق ركن السور يطل على حجرة الإعدام كان وحده الذى يستطيع أن يرى ما يجرى فى المكان الضيق، ينحنى مزيحاً الخوذة للوراء ويمد رأسه وماسورة البندقية تلمع فى ضوء الشمس.

ورغب عجينة يوماً فى واحد من أصحاب البدل الحمراء. أفصح عن ذلك لبعض المساجين، ربما لينقلوا كلامه إلى فارس:

- أشوف طعمهم إيه.

- طعمهم مر.

وقتها كان فى السجن اثنان من البدل الحمراء. واحد منهما رفض مصاحبته وطوح بالمقطف الذى يحمله نحوه. الآخر استمع إليه محدقاً فى وجهه، نقل المقطف إلى يده الأخرى وغمغم:

- ماشي. فين؟

أخذه عجينة ناحية غرفة الإعدام. انتبه صاحب البدلة الحمراء إلى الغرفة وكان أمامها. تقهقر خطوة والثانية ثم استدار مبتعداً. لحق به عجينة قائلاً:

- فيه إيه؟

- ولا حاجة.

ظل فى مشيته. عجينة لم يلح. سار بجواره. قال:

- طيب ندخل العنبر.

دخلا العنبر (أ) القريب منهما.

فارس فى تجواله لا يهدأ. عيناه عكرتان ونظرته شاردة. أربع ليال وعجينة لا يبيت فى فرشته ولا يراه فى أى مكان. أبصرهما خارجين من العنبر وصاحب البدلة الحمراء يرفع سرواله ويربطه. وقف فارس ساكتاً

يحدق إليهما. عافت نفسه فجأة عجينة. ومن يقربه بعد أن أعطى نفسه لبدلة حمراء؟. نظر إلى عجينة دون غضب. عجينة حين رآه أبطأ من خطوته. تبادلا النظرات. ربما فى هذه اللحظة عرف عجينة من النظرة الباردة أنه سيقتل، وكأنما أفاق من غفوة، نظر حوله ثم عاد للعينين اللتين ترمقانه وتراخى فى وقفته. صاحب البدلة الحمراء التقط مقطفه وكان على وشك أن يمضى ثم توقف ينظر من واحد إلى الآخر.

استدار فارس مبتعداً.

بعدها رأينا عجينة يمشى منطفئاً معتدل الخطوة وعيناه تبحثان حوله عن فارس حتى يراه فيقعد غير بعيد عنه، وفارس لا يلتفت نحوه. ربما أحس المساجين بما سيأتى فابتعدوا عن الاثنين. أصبح حولهما دائماً مساحة خالية، وفى العنبر كانت فرشة عجينة مجاورة لفرشة فارس يحتلان ركناً بعيداً عن المدخل. وبعد ما جرى وجد عجينة فرشته وهدومه وقد طوح بها إلى الجانب الآخر. عاد بها إلى مكان غير بعيد عن فرشة فارس، والمساجين القريبون منهما نقلوا أشياءهم مفسحين المكان. يرقد عجينة على جنبه وعيناه على فارس الذى يعطى وجهه للحائط.

هى أيام وعثروا على جثة عجينة ملقاة بالحمام، وحبل قصير مفتول من الخرق حول رقبته.

بعدها كان فارس يتحرك فى أنحاء السجن متهدل الكتفين، لا يكلم أحداً، ولا أحد يكلمه، وأحياناً ينزوى طول النهار فى ركنه بالعنبر، وكان هناك من يحمل إليه تعيينه.

وجاء يوم وعاد إلى زحمة المساجين، وراح يسأل عن الأحوال، واستطاع أن يلتقط عجينة آخر دفع فيه كما علمنا ست علب سجائر وربع قرش حشيش.

***

تزوجت بعد أن استقرت أمورى فى السجن. ابنة حارس من جيراننا. صبية مليحة. بدأت تتواجد فى بيتنا عندما استلمت العمل. تساعد أمي فى أعمال البيت. ترتب حجرتي، وأجد فى عودتى البطانية فى شكل مثلث على الفراش. وكانت أمي تطويها عدة طيات عند مؤخرة السرير. وبيجامتى التى أرمى بها فى أى مكان معلقة بالمسمار خلف باب الحجرة. وفردتى الشبشب متجاورتين أمام السرير حيث أجلس لأخلع حذائي. كانت هى من يفتح الباب عند رجوعي. ترمقنى ببسمة خفيفة وتهرول نحو أمي فى حجرة القعاد.

امتدحت أمي طبيخها ونظافتها، وسكتت. فى قعدة أخرى قالت إنه لا يعجبها الحال المائل. وعيب تجرى البنت وراء الولد. وتقول لأبى إنها – البنت – حطت يدها فى كل حاجة بالبيت قبل ما نقرأ فاتحتها.

ويقول أبي:

- الزمن بيتغير يا أم سالم. وآهى بتساعدك.
- حاتساعدنى فى إيه؟ أنا كنت اشتكيت.
- بنت حلال.

عادة تلبس بلوزة ضيقة تبرز صدرها الممتلىء. كانت أمي عندما تنحنى البنت وترى عن قرب رجرجة ثدييها تلوى فمها جانباً وتتنهد بصوت:

- طيب. زمن.

وقالتها للبنت أخيراً:

- ما تلبسى بلوزة واسعة شوية. تعرفى تاخدى نفسك.

استقامت البنت من انحناءتها:

- ماهى واسعة يا خالة. بصي. اشتريتها من بورسعيد. قماشها بيمط.

- بيمط؟

- آه.

- طيب. مادام بيمط.

سمحت لى بعد قراءة الفاتحة أن ألمس صدرها.

تقاسمت وأبوها ثمن غرفة نوم بالقسط، وكان فرش أمى بالبيت كافياً. لم نشْتر شيئاً آخر. حتى المواعين تركتها أمى بحالة جيدة، وجاءت معها بصندوق به قطع قماش لفساتين وجلابيب لها تكفيها عشر سنوات، كانت تشتريها مما توفره من مصروفها والعيدية، وبالصندوق بلوفر رجالى من الصوف بلفته. قالت إنه جاء هدية لأبيها وكان ضيقاً، وأراد بيعه، وهى احتفظت به فى الصندوق للزمن:

- وآهو جه الزمن.

وأخفت وجهها الضاحك فى إبطها.

***

أقف على السطح فى البكور بعد أن أطعم الحمام وقد احتوانى هدوء المكان. كثبان الرمال تمتد على مدى البصر، وصخور قاتمة تبرز كالعلامات، وخطوط متعرجة من أشجار الشوك القصير، وكرات كبيرة منها تدفعها الريح هنا وهناك. عندما يشتد هبوبها أرى الرمال زاحفة فيما يشبه السحابة تلفحنا فى طريقنا وتخلف أثراً خشناً فى حلقي، وأكون نائماً فى الليل ويوقظنى هسيسها وهى تمرق فوق البلوكات، ورغم إغلاقى النوافذ أحس الحجرة عابقة بها.

التلال الثلاثة تبدو من فوق السطح غير بعيدة، خضرتها الزاهية وسط الرمال، والأشجار العملاقة ترمى بظلالها على الجوانب، تتلامس قممها فيما يشبه السقف يحجب أشعة الشمس الساخنة. وددت أن أرى المكان الذى أمضى فيه أبى شهوره الأخيرة يمرح فى صخب. تخايلنى التلال أحياناً قبل أن أستغرق فى النعاس، أراها تتقدم على مهل مقتربة من البلوكات، تلقى أشجارها النظر من خلال النوافذ، أكاد أسمع حفيفها، تتوقف قليلاً عند نافذتي. أحس بفروعها تلمس وجهي، وألمح أعشاش الغربان فوقها.

ينطلق سرب الحمام بعد الطعام. لا يذهب بعيداً. أقرب بلدة تبعد سبعة كيلو. المحطة أخذت اسمها من المكان. "محطة المعتقل". لافتة كبيرة سوداء تتصدرها والكتابة بلون أزرق. مبنى المحطة صغير،

ألحق به ثلاثة دكاكين لخدمة زوار السجن. أحدها أغلق من زمن ودخل صاحبه السجن، كان يعرض علب أطعمة محفوظة ويبيع فى الخفاء صوراً فاضحة. يرسل من السجن بالمفتاح لينظف أحدهم الدكان وربما ليطمئن على مخبوءاته من الصور التى حفر لها كما يقال تحت الأرض، ويسحب بعضها للبيع داخل الأسوار. كلمنى يوماً هناك:

- عندى لك هدية. انما إيه. تخليك نار.

ورغم تشوقى لرؤية صورة منها بعد أن سمعت عنها ما سمعته إلا أننى رفضت، وكان بلغنى أنه يبحث عن واحد يطمئن إليه ليرسله إلى العاصمة ليأتى بصور جديدة.

***

تذهب امرأتى أول الشهر إلى البلدة المجاورة لتشتري.

- نشترى إيه؟ عندك كل حاجة.

- أشوف.

ما تريده توصى به الدكان على المحطة الذى يرسل فى طلبه، ومن حين لآخر يأتى بائع يحمل بقجة ضخمة على ظهره. يتنقل من بلوك لآخر. يحط فى منتصف مساكن البلوك حيث تتجمع حوله النسوة والبنات، يقدمن له ما يبل ريقه من طعام وماء، وأحياناً كوب شاى إذا طلبه، ويترك لهن البقجة، يفتحن عقدتها، ينكشن ما فيها من أقمشة وملابس داخلية وأطباق، حتى الخيط والإبرة، يوصينه هو الآخر بما يردنه خاصة الكريمات والملابس الداخلية:

- اللى تمسك على الجسم.

يقول والطعام فى فمه:

- فاهم. فاهم. زى اللى فى التليفزيون.

وتقول جارة سمينة لا تستطيع القعاد، تنحنى مستندة على أكتافهن:

- ويكون فيها مقاسات كبيرة وبرضه بتمسك. إيه يابت؟

وتزغد بيدها البنت التى تضحك. والبائع مشغول بالطعام أمامه، يقول:

- حاضر. يومين وأكون هنا.

- موش تكتب الحاجات.

- كتبت.

ويشير إلى رأسه.

تأخذ امرأتى إلى البلدة عربة كارو أضيف إلى سطحها ما يشبه صندوقاً ضخماً مغلق الجوانب بنافذتين ومقعدين مستطيلين. تقول عند الباب:

- وأشوف ناس غير الناس.

ألقى بنظرى وراءها. العربة واقفة. نسوة من الجيران ينتظرنها. وتنطلق بهن العربة.

***

أمشى متمهلاً حين أكون بجوار السياج الذى يفصلنا عن المعتقل. وأراهم من خلال السلك بملابسهم البيضاء يذهبون ويأتون. يتوقف البعض منهم عند جريدة الحائط، وكانت معلقة داخل إطار من الخشب، ربما يقرأونها كما أخبرنى زميلى هناك للمرة العاشرة لمجرد مشاهدة السطور والكلمات ويبتسمون فى كل مرة من الرسوم المضحكة. سمح لهم عقيد المعتقل بإعدادها. وكانت تعرض عليه قبل تعليقها.

قال لى "شلبي" زميلى الحارس هناك إنهم – الحراس- يقرأونها. بها كلام شديد عن الحكومة. غلاء الأسعار. والفلوس التى تهرب إلى الخارج وفساد نواب فى مجلس الشعب:

- كل الكلام اللى بنقوله فى قعدتنا تقرأه فيها. فاكر حادث العبارة؟ أكثر من ألف غرقوا يا سالم. وفيهم عيال. موتة صعبة. وصاحبها. الحسب والنسب. هرب. مكتوب فى الجريدة أنه مسنود من فوق. وأنه دفع عشان يهربوه. أخذ تأشيرة السفر ازاى؟ وركب الطيارة ازاى؟. والعقيد قرأ الكلام وعايز يعرف التفاصيل. طلب المحبوس اللى بيشرف على الجريدة، وأنا أخذته لمكتبه. كان نفسى أسمع. إنما وقفت بره جنب الباب.

وقال شلبى وكان عبر الحاجز إلى السجن خلال الباب فى الطرف والمغلق بسلسلة:

- حتة عقيد. دماغه غويطة. يسمح لهم بالجريدة من هنا ويعطيهم على قفاهم من هنا. ممنوع الزيارات. ممنوع الجوابات. ممنوع أى اتصال بالمساجين. الممنوع كتير. وممنوع الورق والأقلام، هو فرخ الورق كل أسبوع للجريدة مفيش غيره. وكانوا عايزين يكتبوها كل يوم. وكان نفسي، والعقيد قال هى مرة فى الأسبوع.

وقال أيضاً أنه حين يأتى مفتش أو زائر يأخذونه إلى الجريدة. يقرأ ما بها ويهز رأسه متعجباً ويقول:

- ولا صحافة المعارضة.

والعقيد فخور بما يتمتع به المعتقلون من معاملة حسنة فى فترة رئاسته، يقول ويقول، والزائر يصغى مبتسماً، ثم يسأل عن المعتقلين؟

يشير إليهم العقيد قائلاً:

- كما ترى.

كانوا فى الطرف الآخر من المعتقل داخل ملعب كرة السلة حيث تجرى مباراة فيما بينهم. هم هناك لا يدرون أن زائراً قادم ليرى أحوالهم. سارعوا من الصباح الباكر إلى تنظيف الملعب بعد أن بلغهم فى الليل مبادرة العقيد بالسماح لهم بلعب الكرة، وقضوا ساعات من الليل كعادتهم فى مناقشة ما سيجد من أمور، وكان أكثرهم يرى أن المبادرة مريبة، فليست من طباعه ولا أسلوبه. وطرحوا السؤال: لماذا يريدنا أن نلعب؟ وعجزوا عن الإجابة. فى النهاية قالوا ننام ونلعب باكر، ونرى بعدها.

والزائر قال: أريد أن أراهم وأسمع طلباتهم.

والعقيد قال: دعهم يلعبون. أما عن طلباتهم فهى عندى فوق المكتب.

وتقدم الزائر إلى مكتبه. الطلبات أعدها رائد المعتقل قبلها بليلة مع

الباشكاتب. كانت داخل دوسيه على المكتب. والعقيد قال:

- لم أنظر فيها بعد.

وكان يتصفحها وقال:

- الطلبات العادية. تأخير التمام نصف ساعة لتوفير الوقت للاستحمام. السماح بعقد الدروس فى الفناء بدلاً من العنبر.

ويسأل الزائر: أى دروس؟

- المتعلمون منهم يعطون دروس قراءة وكتابة للأميين.

- جميل. جميل.

- ويريدون زيادة نصيب الواحد من اللحم إلى ثلاث قطع. وطبخ الكرنب والسبانخ مرتين فى الأسبوع لما فيها من عناصر مفيدة. أول مرة أسمع أن الكرنب فيه عناصر مفيدة. يعني. تفضل اقرأها بنفسك.

- يكفينى ما قلته.

- بمناسبة الدروس. أقول لك حكاية ظريفة. معهم أستاذ جامعي، شايف نفسه، وكلامه كبير، اسمه موريس.

- الدكتور موريس؟

- تعرفه؟

- كنت فاكر أنه فى معتقل طره.

- عندنا. له سنة ونصف.

- كان أستاذي. لو رآنى سيعرفني. كنت أناقشه كثيراً فى المحاضرة.

- فى حلقة الدرس بالعنبر يرفض تماماً أن يسمعه غير الجامعيين والباقى يخرج من العنبر.

- معقول؟

- اللى حصل. يرجونه. يحايلونه. من الشمال لليمين. وهو أبداً.

يعطيهم كتفه ويبص ناحية تانية.

- والسبب؟

- سألوه نفس السؤال. قال لهم لن يفهموا كلمة مما سأقوله، ولا أتحمل الأسئلة التافهة فى محاضراتي. واحد لا يعرف كتابة اسمه ماذا سيفهم من موضوع مثل "غباء الاستبداد".

- له بحث بهذا الاسم. أظنه نشره فى كتاب.

- وخرج غير الجامعيين من العنبر. قعدوا جنب الباب وواربوه وسمعوا المحاضرة. ومرة وقعت نظارته وانكسر ذراعها. ومن يصلحها؟ واحد غير جامعى على ما أذكر عامل نسيج، ظن أن الأستاذ بعدها سيسمح له بدخول المحاضرة. إنما. أبداً.

- كانت له معنا فى المحاضرة حكايات. واللغة العربية.

- فكرتني. لا يتكلم إلا الفصحى. ينادى:

"يا حارس. تمهل".

الحارس يعطيه ظهره ويمشي. الأستاذ ينادي:

"أنت أيها الحارس. إنى أناديك. ألا تسمعني؟ أصابك الصمم؟"

والحارس ماشى يخفى ضحكته.

ويضحكان.

ما لم يقله العقيد لضيفه أن الحارس هو من كسر النظارة. حين ناداه الأستاذ لم يضحك ولم يواصل مشيه. رجع غاضباً ورقعه بالكف على وجهه فطارت النظارة. كنت ممن شاهدوا الواقعة. الأستاذ من غير النظارة لا يبصر أحداً. يلوح بيديه كأنما يدفع هجوماً عليه. الحارس يستدير ليذهب، غير رأيه ورجع، أعطى الأستاذ كفاً آخر.

العقيد طلب القهوة لضيفه، بعدها أخذ يكلمه عن الهجوم الذى يتعرض له من قبل منظمات حقوق الإنسان وغيرها.

- اتهامات ظالمة. ولو جاءوا ورأوا بعيونهم مثلك. أوقات أقول لنفسى إننى وزملائى فى المعتقلات الأخرى لسنا المقصودين بكلامهم وإنما النظام.

ويقول الزائر الذى لم أعرف صفته:

- معك حق. لابد من رد رسمى شديد اللهجة على افتراءاتهم.

كنت أقف خارج الباب، والباب مغلق بالسلك يسمح بالتهوية ويمنع الحشرات. أحمل صينية القهوة حين تأتى وأدخل بها. أصب لهما القهوة فى الفناجين، وألمح فى انحناءتى الخاتم الذهبى الكبير بفصه الأسود المائل على جنب فى الإصبع الوسطى ليد الضيف. أتقهقر بظهرى للباب والخاتم لا يخرج من دماغي.

- كده والله يا سالم. ده موش خاتم أبداً. لولا الفص. لم أر فى حياتى خاتماً بهذا الحجم.

ويأتى نوع آخر من الزوار. دائماً اثنان. واحد يلبس الميرى برتبة عميد، وآخر مدني. المدنى يتقدم العميد وهو من يسأل. العقيد يقف أمامهما وقفة انتباه، المعتقلون قبلها بيوم نالوا طريحة شديدة من الضرب بالخيزران. ظلوا فى العنبر لا يخرجون وقد عرَّوا ظهورهم بما عليها من خطوط دامية وراحوا ينشون عنها الذباب. العميد والمدنى وقفا ينظران إلى الجريدة المعلقة، تبادلا نظرة ثم التفتا إلى العقيد. العقيد واقف لا يتكلم. نحن الحراس نقف على بعد خطوات فى صف صغير استعداداً لتلبية الأوامر. العميد سأل:

- أين هم؟

العقيد قال:

- فى الداخل يا أفندم.

- هاتهم.

التفت العقيد. أسرعنا إلى العنبر. أعطينا الأوامر بالخروج. المعتقلون وظهورهم عارية، ولا واحد تحرك من قعدته. نظرنا إلى العقيد. أعطى الأوامر بهزة من رأسه. اندفعنا داخل العنبر، سقناهم أمامنا بالعصي. خرجوا ووقفوا أمام العنبر. كل يمسك سترته بيده، لا يريدون لبسها حتى لا تلتصق بالجروح. جاء الرائد وخلفه الملازم فى خطوة سريعة. تولى الرائد الأمر تبعاً لإشارات العقيد. أمر المعتقلين أن يستديروا. بانت ظهورهم وعليها خطوط بدأت دماؤها تجف، أمرهم أن يلبسوا ستراتهم. لبسوها. المدنى همس فى أذن العميد الذى همس للعقيد. العقيد أعطى أمره للرائد فصاح:

- نشأت الدوغري.

خرج نشأت من بين المعتقلين، تقدم نحوهم. أستاذ جامعى عمره أكثر من خمسين. شعره شاب. وابن نكتة. ما من مرة يا سالم رآنى إلا وقال:

- يا شلبي. خذ دي.

ويرمى النكتة ويمشي.

وقف أمامهم. وأنا زعلت عشانه. سأله المدني:

- أنت اللى كتبت فى الجرنال عن العائلة الملكية اللى بتحكم البلد؟

- آه. أنا.

- اسمك عليه.

- ممكن. لم أره.

- لم تصلك نسخة؟

- ممنوع.

- عارف أنه ممنوع. لم تصلك نسخة؟

- لم تصل.

- وأرسلت المقال للجرنال ازاى؟
- لم أرسل.
- وصلهم إزاى ونشروه؟
- اسألهم.
- إنما مقالك وأنت كتبته؟
- أيوه.
انفجر الرائد غاضباً:
- قل أيوه يا أفندم يا ابن الكلب.
- أيوه يا أفندم يا ابن الكلب.
واللى حصل يا سالم. كله ساكت. العقيد أول من تحرك. هوت يده على وجه الأستاذ. والأستاذ صاح:
- هو اللى أمرنى أقول كده.
والرائد صاح:
- بتستعبط يا كلب.
المدنى أشار بيده موقفاً الكلام. استدار وتبعه الآخرون.
تقدمهم العقيد إلى مكتبه. وأنا وراءهم. وقفت بالباب. قدمت لهم القهوة وعدت مكاني. تكلموا فى السياسة. والعناصر التى تعمل لحساب جهات أجنبية. ثم خرجوا. وقبل أن يخرجوا سحبوا نشأت الدوغرى خارج العنبر وهات يا ضرب، وأنا كنت خائفاً من أن يأمرنى الرائد بضربه.
- ماكنتش حاعرف أضربه.
رقد فى العلقة خمسة أيام. والتومرجى يزوره فى اليوم مرتين.

***

شلبى زميلى فى المعتقل. يغيب أيام ثم يظهر. أراه واقفاً خلف السلك وعيناه تبحثان عني. أشير إليه. يدخل من الباب الصغير بطرف الحاجز. نأخذ قعدتنا على دكة خلف مكاتب إدارة السجن. نشرب الشاى ويدردش على راحته كما يقول. سألني:

- وإيه عاجبك فى المعتقل عشان عايز تروحه؟

- السجن صعب .

- والمعتقل أصعب. الميرى فيه شديد. أنت فى السجن تطنش. تريح. إنما المعتقل ماتقدرش. الضباط عندكم بيراعوا شوية. عندنا لأ. مايعرفش أبوه. وكلهم – والكلام ده بينا – من العقيد للملازم بعتوهم للخدمة هنا لأنهم غير مرضى عنهم. يعنى عقاب. سوء سلوك. منفى، ده اللى سمعته فى الإدارة. لما كانوا يبعتونى بأوراق. لى أصحاب هناك زيك كده. حكوا لي .

- عندنا فى السجن كده برضه.

- السجن كمان؟ وأنا كنت فاكر..

- أبداً. لولا خوفهم من المساجين كانوا عملوا أكتر من اللى عندك.

- عندنا المعتقلون غلابة. آخر اللى يقدروا عليه يبعتوا كلام للجرائد

عن سوء المعاملة. الرائد يقرأ الكلام ويضحك :

- "براحتهم. يقولوا اللى عايزينه. بس نفسى أفهم يا أولاد الأفاعى

– والشتمة لنا – الكلام ده خرج من هنا إزاي؟"

- آهو. سجن. معتقل. الحال من بعضه. ولو عايز تتنقل بعد كلامى شوف الرائد. هو شرس ولسانه طويل إنما لو رضى عنك حايساعدك فى النقل.

حكى فى يوم آخر، وكان شرب كوب الشاى الثاني:

- العدد اللى فات من الجريدة كان حكاية. كتبوا عن الرائد. قالوا إنه محتاج لدورة تدريبية عشان يفهم إيه هى حقوق الإنسان. لأنه تجاوز كل الحدود وآخرها ضربه لمعتقل بالشلوت، ولو كان فى البلد قانون كان الحال تغير. ورسموا له صورة. أسنانه خارجة زى الأنياب، مخالب فى أصابع يديه. سكين كبيرة على جنبه والعنوان "فتوة المدبح". لا قالوا اسمه ولا رتبته. كل اللى قالوه ضابط فى المعتقل يعمل كذا وكذا. تقرأ الكلام تقول هو. أنا أخذت المسودة إلى العقيد. فى الطريق قرأت المكتوب وعرفت أنه الرائد. أقول لك الحق انبسطت. العقيد شاف المسودة وضحك. بعدين غضب وزعق:

- "قل لهم يشيلوا الكلام الفارغ اللى على الرائد".

ورجعت لهم بالمسودة، وسمعوا ما قلته من أوامر العقيد. دخلوا العنبر. هى ساعة زمن وعلقوا الجريدة فى البرواز وعادوا للعنبر. إحنا الحراس أول من بص على الجريدة. شفناها بيضاء. وفى وسطها مكتوب بالخط الكبير:

"العدد مصادر بأمر عقيد المعتقل"

فوجئنا بالرائد يزيحنا بعصاه، وعيناه طقت شرار. صاح:

"هات لى المشرف على البتاعة دي"

كنت القريب منه. يعنى الأمر صدر لي. ناديت عليه وأنا بمدخل العنبر. خرج. عجوز أهتم. اقترب من الرائد اللى رفع كفه وطاخ على وجهه، العجوز داخ، كنت حامسكه ويدى تحركت، شفت عين الرائد بتبص لي، وقفت ساكت، العجوز وقع والرائد زعق:

"شوف يا روح أمك. الورقة الوسخة دى تشيلها وتجيب غيرها. تملأها كتابة. هى ساعة وأشوف الكتابة شكلها إزاي. مصادرة قال."

ومشى.

المعتقلون أضربوا عن الطعام. عيبهم أن أول حاجة يعملوها يضربوا عن الأكل. طيب وبعدين؟ ولا حد سأل فيهم. يومين والخبر نشر فى الجرائد. وسمعت أن جرائد المعارضة كتبت جامد. كل الجرائد بتيجى للعقيد بدري. يكون كذا حارس شافوها وقرأوها قبل وصوله. الرائد هاج. ازاى الخبر خرج من المعتقل، حتى ضربه للعجوز مكتوب، وأسم الرائد كمان، قالوا انه سفاح وأنهم سيكتبون عن سوابقه، موش كده وبس، نشروا صورته اللى كانت فى جريدة المعتقل، وطلع يا سالم إن العجوز حاجة كبيرة فى الصحافة. حارس منا كان فى مكتب العقيد سمعه بيقول فى التليفون إنه حايلم الموضوع. ولغاية دلوقتى ما عملش حاجة.

كان يشرب كوب الشاى الثالث. وقال:

- الشاى عندكم أحسن من عندنا.

- تعال وقت ما يعجبك.

- آه. عايز أسألك عن حاجة. أنت سمعت عن مساجين عندكم أكلوا علقة جامدة؟

- آه. أربعة.

- يبقى صحيح اللى أنا سمعته.

- إيه الحكاية.

- حاقول لك. والكلام ده ماتقولوش لحد لأنه خطر.

وحكى.

قال إن الرائد له فى السجن شلّة مساجين يعملون لحسابه. حوالى عشرة. لا يعرف كيف جمعهم ولا كيف يعطيهم أوامره. لابد أن حراساً فى السجن يساعدونه. قاموا حتى الآن بعمليتين. الأولى من شهرين. ما أن غادر العقيد فى الليل وبعده الحراس ولم يبق غير النوبتجية. وكنت منها حتى فك الرائد سلسلة باب الحاجز بين السجن والمعتقل وتركه مواربا، هذا ما عرفته بعد العملية، ومن يفكها غيره أو حارسه. كان سحب واحداً من بيننا وجعله حارسه الخاص. ينظف له مكتبه ويقف ببابه، يحمل أشياءه فى مجيئه وعودته وأحياناً يرافقه للبيت. وغير ملتزم بالتمام بتاعنا. وسمعت أن عقيد المعتقل وافق على ذلك لضرورات أمنية. النوبتجية فى الحجرة وبابها مقفول عليهم يشربون الشاى ويدخنون حجرين معسل. المساجين دخلوا المعتقل، كل واحد منهم فى يده فرع شجرة. اقتحموا العنبر وقفلوا بابه. وهات يا ضرب فى كل من يقع فى أيديهم. المعتقلون أخذتهم المفاجأة، فزعوا شمال ويمين، وجروا إلى نهاية العنبر صائحين، لم تصلنا صيحاتهم لأنهم كانوا مكومين فى آخر العنبر. العملية كانت خطفاً. دقيقتان. القصد منها والله أعلم ليس الضرب. والمساجين رجعوا. حين بلغنا صياح المعتقلين خرجنا. كانوا هناك وهنا خارج العنبر. والرائد جاء. يكتم ضحكته:

- فيه إيه؟ خارج العنبر ليه؟

يتهادى فى مشيته نحونا. قال حارس منا:

- بيقولوا ضربوهم.

- مين ضربهم؟
- مساجين.
- مساجين؟ نكتة بايخة. شوفوا غيرها.
يبدوا أنه أو حارسه أغلق سلسلة باب الحاجز قبل أن يأتي:
- برضه بيقولوا مساجين. يظهر أن ثقافتكم زادت حبتين وقلبت بهبل. خش أنت هو العنبر.
وصاح بأحد الحراس:
- خذ أقوالهم المسخرة دى وهاتها لى المكتب أحقق فى الموضوع.
العملية الثانية من أيام. نفس الطريقة. المعتقلون مضربون عن الطعام. متربعين طول النهار أمام العنبر، نروح ونرجع وهم فى قعدتهم. كانوا فى الصباح أرسلوا البعض للمطبخ ليأتى بالفطور. ويظهر وصلوا بدري. وقفوا بالباب ينتظرون. وبخار شديد يخرج عليهم. مسجون صدره عارى واقف على المصطبة ويرفع جوالاً ممتلئاً بالعدس يفرغه في وعاء الطبخ إياه. الفئران نطت من الجوال نزلت فى الوعاء. رجعت فى قفزة بعد ما لسعها غليان الماء، رفرفت ثانية وسط البخار وذيولها واقفة ووقعت فى الوعاء.
- زى ما أنت عارف. المنظر لا يسر. شفناه كذا مرة وبرضه نأكل.
المسجون على المصطبة شاف المعتقلين واقفين فى حالة كرب، ومنهم اللى تقيأ على جنب، زاد فيها. مد يده والتقط فأراً من الوعاء وصاح ضاحكاً:
" الدسم"
وراح ينقله من يد إلى يد، ثم أمسك به من ذيله وهزه قليلاً أمامهم ورماه فى الوعاء. والمعتقلون رجعوا بالأوعية فارغة وأضربوا عن الطعام.

- طيب. ادينى عقلك يا سالم. إحنا بناكل العسل والمش وبنشيل منه دود وصراصير ونمل، وعلى ما أسمع فيه بلاد بتأكل الضفادع والفيران والثعابين. يعنى موش هو السبب اللى يخليهم يضربوا. المهم.

نقلوا قعدتهم إلى داخل العنبر فى الليل. عدم الأكل أضعفهم. لم يتحملوا طويلاً ضربات المساجين الذين كبسوا عليهم. وكانت ضرباتهم هذه المرة شديدة. صياحهم خرج من العنبر واختفى قبل أن يصل إلينا. وجدناهم مبعثرين فى العنبر. إصابات ودماء. بعضهم التصق بالحائط ورفض مرتعشاً أيدينا الممدودة. وجاء الرائد كما فى المرة السابقة:

" حاتقولوا لى مساجين تاني؟"

المعتقلون لم يقولوا كلمة. الكثير منهم راقد يجفف دمه بخرق.

"ناد الممرضين هنا. موش حايقدروا يمشوا للعيادة. وده نتيجة الإضراب عن الأكل."

واستدار عائداً.

وبلغنى أن مساجين عندكم لم يعجبهم ما حصل بعد أن عرفوا الحكاية. مجموعة منهم راحت لشلة الرائد، وكانوا بعد أن عملوا معه يتحركون دائماً معاً، ربطة معلم، فاهمين أنهم مساجين درجة أولى، وتقابلوا، مجموعة المساجين وشلة الرائد. وكلام من هنا وكلام من هنا. فارس بتاع عجينة كان من المجموعة وغضبان قوي. يقول لهم:

"إحنا هنا مساجين بنقضى فترة. وهم هناك فى المعتقل مساجين بيقضوا فترة. نضرب بعض إزاى؟"

وهو من بدأ بضربهم. والشلة خافت وهربت. المجموعة مسكت أربعة منهم وهات يا ضرب. ضرب شديد وإصابات.

- دا صحيح. ماكنتش أعرف السبب. كان فكرى أنها خناقة.

- ماحدش عارف الحكاية حاتنتهى إزاى. وفى المعتقل لسه

مضربين.

- دول موش واخدين حكم بمدة؟

- لا حكم ولا قضية. قالوا لنا خذوا دول. أخذناهم.

- فهمت. عناصر مشاغبة.

- المهم. عشان يكون عندك فكرة قبل ما تسعى للنقل. والدك الله يرحمه كان لا يحب المعتقل ولا حتى يشرب فيه شاي.

***

ذكرتنى حكاية شلبى عن شلة الرائد من المساجين بحكاية أخرى سمعتها فى السجن من شهر، لم أفلح فى جمع كل خيوطها، فما زالت أشياء صغيرة تنقصها.

الحكاية أن رائد المعتقل أراد على ما يبدو أن يخدم. وربما لم تعرف إدارته الرئيسية ما ينوى عمله، هو البعيد، فى المنفى كما يقول، سمع شذرات من العاملين هناك ورأى أن يخدم، واستعان بمسجون لتنفيذ ما رآه. لابد أن حارسه الخاص من قام بالاختيار فهو يعرف أغلب المساجين، ويتبادل معهم الكلام. كان المسجون معروفاً بقوته البدنية، وكان يستطيع بكفه أن يكسر قالب طوب، يسمونه "أبو كف"، وكان المساجين يودون لو رأوا عراكاً بينه وفارس، غير أن الاثنين لم يسعيا لذلك، وكانا يعالجان مشاكلهما بسهولة. لم تكن لفارس قوة ذراع أبو كف غير أنه كان ماهراً فى استخدام المطواة يخرجها فى لمح البصر من ملابسه. لا يدرى أحد أين يخفيها، وحتى فى التفتيش ورغم قيام الحارس بتحسس كل ملابسه لا يعثر عليها، وربما كان يلمسها ويسكت.

والرائد قابل مأمور السجن فى مكتبه. قال لى حارس المكتب إن كل

ما سمعه كان كلام المأمور فصوته مرتفع:

- ما أقدرش أقول لك لأ. إنما أنا معرفش حاجة. ولا أنت قلت لى حاجة. عندك المسجون خذه لمكتبك. ليلة ليلتان موافق. أكثر من كده أعلن عن غيابه. أنتم بتوع الأمن فيه اللى يحميكم. إنما إحنا..

عبر أبو كف الحاجز إلى مكتب رائد المعتقل الذى طلب له كوكاكولا. ولابد أن أبو كف خاف وارتعش، ومن ذعره اكتفى برشفتين، واعتذر بمعدته. سأله الرائد متلطفاً:

- مالها معدتك؟

- شوية كده. بتروح شمال ويمين.

- تلاقيها نسيت الكوكاكولا.

- الكاكولا وغيرها يا أفندم.

- أنا عايزك فى حكاية بسيطة وسهلة. حاتقضى لك ساعتين تتفسح وتشوف الدنيا وترجع. مين عارف يمكن أحتاجك فى عمليات تانية. المهم اللى بينا يفضل بينا. لأنه عيب يخرج.

- تحت أمرك يا أفندم.

- المطلوب تضرب واحد علقة بدون كسور أو عاهات.

- يبقى حزام جلد.

- كويس أن دماغك بتشتغل. علقة إنما سخنة. شوف.

لم يسمع الحارس الخاص بعد ذلك شيئاً. فالرائد خفض صوته كثيراً. واقترب برأسه من "أبو كف" وراح يرسم على ورقة بيده. وربما كان يشرح له العنوان.

أبو كف خرج من المكتب مشدوهاً. يتلفت وراءه ويسأل الحارس الذى رافقه إن كان أحد يناديه؟ والحارس يتعجب من حاله ويقول:

- ومين حايناديك؟

الحارس يريد أن يعرف ولا يستطيع أن يسأل. فى النهاية قال:

- مشوارك بعيد؟

قال أبو كف وقد أصبح حذراً:

- أبداً.

ارتدى ملابس مدنية جاء بها الحارس. وكان هناك حزام عريض بالبنطلون تحسسه بأصبعه ليختبر ليونته، وقبعة أيضاً. ضحك حين رآها:

- تغطى الصلعة.

قال الحارس: هدوم السجن عندى لما ترجع. حاستناك بره أمام الباب.

- وتعرف ميعاد رجوعى إزاي؟

- سيادة الرائد قال لى أنك حاتكلمه بالتليفون. صح؟

- صح.

- تقول له تمام يا أفندم. صح؟

- صح؟

- واحسب بقى الوقت بعد التليفون. وتلاقينى منتظرك.

- كلام سليم.

رمق الحارس بطرف عينيه، ربما بدا على وجهه مدى ما يعرفه. الآخر أحس بنظرته وتصنع اللامبالاة.

خرجا من المعتقل. سارا قليلاً إلى الطريق الممهد. تذكر أبو كف أنه نسى أن يأخذ نفساً عميقاً لحظة خروجه. قال طيب كما سمع. ويغسل رئتيه بالمرة.

تاكسى مغلق كان واقفاً. أعطاه الحارس رخصتى السيارة والقيادة وتحقيق الشخصية، ومفتاح التاكسي. قال حين رآه ينظر إلى البطاقات

المغلفة بالبلاستيك:

- كلها مضروبة.

- واسمي؟

- اسمك زى ماهو. خايف عليه.

- تغير اسمك. مصايبك تكتر.

- منكم نستفيد. سرعتك تبقى معقولة.

- صح الكلام.

أبو كف كان يعمل على تاكسى فى أيامه القديمة، وصدم امرأة وماتت. أخذ حكم قتل خطأ خمس سنين، أمضى منها ثلاثاً. قال فى التحقيق إن سرعته كانت هادئة. والخطأ من المرأة. هى سمينة، مدت قدمها لتصعد الرصيف المجاور. قدمها لم تكن ثابتة. وربما ثقل الجسد أكثر مما تتحمله، حين بدأت فى رفع قدمها الثانية اعتبرها صعدت وزاد من سرعة السيارة، فى نفس اللحظة هوت المرأة على ظهرها أمام السيارة. لم يكن هناك بين الشهود من رأى صعودها إلى الرصيف ولا حركة قدميها.

كان متزوجاً من عام. وامرأته زارته فى السجن. وقالت إنها حامل. عمل لها توكيل لتسحب من حسابه فى البنك. تحويشة عمره ليشترى التاكسي. فى الزيارة التالية سألها عن الحمل. قالت:

- الدكتور كان قال لى حامل. فى المرة الثانية قال الحمل كاذب.

هى حلوة. يشتهيها دائماً. كلما مر قريباً من البيت يصعد. يضاجعها ويمضي.

صعد إلى التاكسى وأدار المحرك. الصوت الناعم. هز رأسه للحارس الخاص وانطلق. الآن يستطيع أن يراها من الداخل على راحته. موديل جديد. عمرها ثلاث سنين. فتح الراديو. أم كلثوم، أغنية يحبها "هلت

ليالى القمر". فتح التابلوه. علبة سجائر كاملة وولاعة. النوع الذى كان يستخدمه. الزمن القديم يعود. وزجاجتا كوكاكولا. جميل. جميل. واحدة فى الذهاب. وواحدة فى العودة. حضرة الرائد لا يفوته شيء. ابن أصول بصحيح. وسندوتش. لحم بفتيك بالسلطة. من خارج السجن طبعاً. ربما تم إعداده فى بيت الحارس. لابد أنه أكل نصفه وجاء بالنصف الآخر. الماء لا يفوت على عطشان. الحارس واللى زيه لا يأكلون غير اللحم بالعظم. إيه يا أبو كف الحكاية؟ شغل دماغك. كل ده عشان أضرب واحد. وأسأله:

- والضرب يا أفندم؟

- ما تسألش.

- حاضر.

متسألش. ماشي. إنما بفتيك وكوكاكولا وسجائر؟ الحكاية المستخبى فيها كثير. كله يبان فى وقته، افتح زجاج الشباك. وتسند عليه بذراعك. وفى يدك زجاجة الكوكاكولا. تشرب وتشرب. ترمى الفارغة. من الشباك زى أولاد الناس.

شوارع القاهرة. يعرفها ويحفظها. يسير فى الشوارع الجانبية بعيداً عن الزحام. لمح امرأة تغادر مدخل عمارة يرافقها رجل. أول امرأة يراها من سنين. عودها الراقص. تهبط الدرجات الخارجية. واحدة. واحدة. رجرجة صدرها. الجيبة الضيقة قماشها خفيف يبرز ثنايا ردفيها. ساقها الطويلة. تمدها. تتحسس درجة السلم. الرغبة تسرى فى جسده. يده على الدركسيون ابتلت بالعرق. جففها بالبنطلون. قلل من سرعته ليملأ عينيه منها. وصلت للرصيف الذى تجمعت مياه أمامه. خطوة وأخرى، تبحث عن أرض جافة لتنزل إلى الشارع. شعرها الطويل مبعثر على كتفيها. فجأة أطلق سرعته. ورأى الرذاذ يغرقها

والرجل يقفز بعيداً. تمهل فى سيره. شرب زجاجة الكوكاكولا الثانية. نسى حضرة الرائد المصروف. ربما لا يريده أن يتوقف ويشتري. بحث فى درج التابلوه. فكة صغيرة للبقشيش. ليكن. تكفي. اشترى من كشك على جانب الشارع زجاجتى كوكاكولا وثلاث أصابع عسلية، حلواه المفضلة فى صغره. هو يعرف عنوان الفندق الذى يسهر فيه الزبون، وقال ذلك للرائد. وكأنه لم يقل شيئاً. استمر فى شرحه، وأعاد الشرح، ورسم على الورق موقع الفندق والمكان الذى ينتظر فيه.

وقف أخيراً، ظل داخل التاكسي. البعض كان يطلبه. يعتذر بأنه ينتظر زبوناً فى الفندق. المشكلة التى قد تواجهه لا يعرف لها حلاً. ربما ركب الزبون مع واحد من أصحابه. ويكون عليه فى هذه الحالة أن يتبعهما أو يذهب لينتظره أمام بيته. الرائد أعطاه العنوان:

- ده احتياطي.

احتياطي. ماشي. يصعد إلى الشقة ويعطيه العلقة هناك. ولو رآه أحد؟ والبواب؟ وقد يعلو صراخه فلا تكتمل العلقة. الأفضل أن يخرج وحده من الفندق ويركب معه. لا توجد تاكسيات أخرى واقفة.

رآه خارجاً من بوابة الفندق. يهبط درجات السلم. نفس الأوصاف التى أعطاها له الرائد. قصير، نحيل. ونفس موعد الخروج. الثامنة مساءً. تقدم بالتاكسى حتى حاذاه. قال:

- تاكسي.

ركب فى المقعد الخلفي. الأمر تم بسهولة. قال الزبون:

- المعادي.

أغلق الأبواب وزجاج النوافذ بواسطة الأزرار بجواره وانطلق. لمحه فى المرآة ينظر من النافذة ساهماً، ورأى أن يكون بينهما كلام. قال:

- حضرتك ساكن فى المعادى من زمان؟

- ليه؟

- أنا هناك من عشر سنين.

- فين؟

وصف له حياً شعبياً رآه مرة ونسى اسمه. قال الزبون:

- كل ده تغير دلوقتي.

- أصل شكلك موش غريب.

ضحك الزبون: يعنى شفتنى فى المعادي؟

بادله الضحك: ليه لأ. أو ركبت معاى قبل كده.

- يمكن شفتنى فى الجرائد. أنا صحفي.

- أهلاً وسهلاً. أحسن ناس. أنا ركب معاى مرة الأستاذ مصطفى أمين. عربته تأخرت وكان خارج من سهرة. شافني. وجاى يدخل من باب التاكسى انحشر.

ضحك الزبون: وعملت إيه؟

- حاعمل إيه. نزلت ودخلته حتة حتة.

الزبون استغرق فى الضحك: إزاي؟

- الأول رأسه وكتفه.

وضحك. والزبون انفجر فى ضحك مرتفع. قال أبو كف:

- زى ما بقول لحضرتك. بركت ورفعت رجل. دخَّلتها. والرجل ما شاء الله تقيلة قوي. وبعدها الرجل الثانية.

- تعبت كتير.

- نفسى انقطع. وصلته أخبار اليوم.

- فى الليل؟

وسكتا. قال أبو كف بعد لحظة:

ـ العيشة بقت صعبة قوى يا أستاذ.

ـ سيبنا من السيرة دي.

وانتبه إلى الطريق. سأل:

ـ على فين كده؟

ـ حاخد بنزين من محطة قريبة. أتعامل معاها دايماً.

ـ بنزين إيه؟ إحنا فين؟

ـ حانكون فين؟ على الطريق.

الخلاء يضيئه القمر. أشجار على الجانب. حقول ممتدة يتمايل زرعها. الطريق خال. لا سيارات خلفهم ولا أمامهم. قال أبو كف:

ـ ومين فى الزمن ده بيقرأ جرايد؟

ـ إيه الحكاية؟

ـ كل ده من الكلام الفارغ اللى بتكتبوه.

ـ إيه الحكاية؟

ـ حكاية إيه يا راجل. أنت خليت فيها حكاية.

أوقف السيارة على جانب الطريق. فتح الباب الخلفي، طرح الزبون على وجهه فوق المقعد. قيد يديه برباط سحبه من جنبه. قال الزبون:

ـ لو حكاية فلوس؟

دس منديلاً فى فمه:

ـ لسه بتتكلم عن الحكاية؟

دحرجه إلى أرض السيارة:

ـ موش عايز صوت.

وانطلق.

على بعد قليل بدا كشك شرطة عسكرية وضوء خافت داخله. خفف من سرعته وتخطاه، عند مفرق طرق دخل طريقاً جانبياً ممهداً. سار

فيه قليلاً ثم أوقف السيارة بين شجرتين أمامهما مساحة خالية مترية، على جانبها سور مهدم داخله خرابة، ولافتة عريضة سوداء كتب فى وسطها باللون الأبيض اسم المالك.

ما جرى للصحفى قرأناه نحن الحراس دون تفاصيل فى الجرائد، وقلنا وقتها إنها حكاية عجيبة. ولم يخطر لأى منا أن يكون أبو كف مشاركاً.

سحب الصحفى من داخل السيارة. كان خفيفاً مثل غلام. أنزله بالراحة على الأرض مغمغماً:

- من غير كسور ولا عاهات. حاضر يا أفندم.

فك قيد يديه وأخرج المنديل من فمه. زحف الصحفى مبتعداً قليلاً. فتح أبو كف السيارة، قعد على طرف المقعد وساقاه للخارج والصحفى مكوم عند قدميه. أخذ رشفة من زجاجة الكوكاكولا، وسأله:

- بتحب أم كلثوم؟

أخذ رشفة أخرى وتجشأ فى صوت. قال:

- باين عليك لئيم. بتحبها وموش عايز تقول.

بعد الرشفة الثالثة نظر إلى الزجاجة ليرى ما تبقى. سأله:

- بتكتب إيه فى الجرايد؟

- .. .. ..

- برضه ساكت. مع أننى أفهم والله. طيب اسألنى أى سؤال.

أخذ الرشفة الأخيرة. نظر إلى الزجاجة الفارغة. طوحها نحو اللافتة.

- إيه رأيك تكتب قصة حياتي؟

سكت. ينظر حوله. أشعل سيجارة وظل ساكتاً. قال:

- الوقت بيجرى وعايز أعرف بتكتب إيه؟

- أكتب فى السياسة.
- مجلس الشعب والحكومة والحاجات دي؟
- آه.
- الله يكسفك. دى موضوعات. العياذ بالله. ومين يقرأها؟
- آهو.
- وكله؟
- آه.
- قلت لي. اخلع هدومك. وطول السكة أفكر إيه اللى انت عملته. مادام فيها كله. اخلع هدومك.

زحف الصحفى للوراء. قال أبو كف:

- اخلعها بدل ما أقطعها. البدلة جديدة خسارة.

خلع الصحفى السترة وتوقف. قال أبو كف:

- والباقي. من غير صوت.

خلع باقى ملابسه قطعة وراء الأخرى، رتبها فوق الحذاء. قال:

- بتشتغل لمين؟
- ليه؟ موش مالى عينك؟ يا قوة الله.

كان لمح عضو الصحفي وهو يحاول إخفاءه بين فخذيه:

- كل ده. سبحانه يعطى من يشاء.

ضحك:

- لو أعطانى نصفه ماكنتش مراتى راحت فى النوم وهى تحتي.

دس المنديل فى فمه، وأعاد قيد يديه. سحب الحزام. تأمل لحظة الجسد الملقى. كان ضئيلاً شاحباً فى ضوء القمر، وعندما ثنى ساقيه برزت عظامه. هوى بالحزام. تقوس الجسد وانقلب على وجهه، تدحرج والحزام يلاحقه، يزم ويئن، ثم ضرط.

توقف عن الضرب. الجسد رقد ساكناً وعيناه صاحيتان تنظران إليه. أنفه الدامي وشفتاه، لابد أن الحزام نالهم. نزع المنديل من فمه. انطلقت بصقة إلى وجهه، مسحها بالمنديل الذى كان لا يزال فى يده ورمى به، انحنى يفك قيد يديه. ماذا جرى له؟. لا يدري. العلقة لم تكتمل، نصفه السفلى كله كما هو. أخرج منديلاً آخر مسح به أنف الصحفى وفمه، كان يظنها مجرد لعبة مسلية تخرجه ساعات من خلف الأسوار. حاول أن يتذكر ما طلب منه الرائد أن يقوله بعد ضربه. بقيت كلمات واختفت أخرى، وكان ينظر إلى قمة الشجرة ورأى عشاً يرقد فيه طير يصفق خفيفاً بجناحيه منتشياً ربما بضوء القمر. تذكر الكلمات ورددها:

- ده عشان تحترم أسيادك بعد كده.

أشار له أن ينهض، وقف مترنحاً. أثار الحزام قاتمة على جسده الأبيض.

- عارف الطريق. امشي.

نظر الصحفى إلى ملابسه. قال أبو كف:

- سيب الهدوم. امشي.

- الأوراق فى المحفظة. ومفتاح البيت.

- آه. فين المحفظة؟

كاد ينسى ما قاله الرائد:

- خذ فلوسه.

- وأعمل بها إيه؟

- خذها وخلاص.

أخذها. ورمى إليه المحفظة.

سار الصحفى متعثراً. وفى الطريق قابل من أعطاه ملاءة أو عباءة لف بها جسده.

انطلق أبو كف إلى الجهة العكسية. لمح بعد قليل مقهى ريفى صغير على جانب السكة. وبيوت قليلة مبعثرة خلفه. فى أيامه القديمة كان شغوفاً بهذه المقاهي، يتوقف عندها حين تكون فى طريقه بعد توصيلة. أوقف التاكسى على جانب المقهى، واختار كما فى الماضى مقعداً خارجها، نفس ما كان يراه سابقاً، الترعة وجسر نحيل من الخشب يصل الضفتين، يرتفع صريره كلما مرت بهيمة فوقه، ونسوة يحملن مواعين و هدوم يهبطن الشاطىء، ويرى الواحدة صاعدة تتوقف على حافة الإسفلت، تجمع ذيل جلبابها المبتل وتعصره، وتمضي.

دخن حجرين من المعسل. رائحته التى افتقدها ثلاث سنين، ويكون فى فناء السجن ويشمها. يتلفت حوله. لابد أن الهواء حملها من مكان قريب.

شرب الشاي، كان لا يزال عكر المزاج، دخن حجرين آخرين، بحث فى جيوبه عن باقى الفكة. نادى صاحب المقهى، جاء يجفف يديه فى حجر الجلباب. وقف منتظراً. الفكة على ما يبدو تركها فى التابلوه، أشار بيده نحو التاكسي، وقام متجهاً إليه. صاحب المقهى ربما لم يفهم معنى الإشارة، مالت رأسه قليلاً ليتابعه بنظراته، ورآه يركب التاكسى وينطلق، الرجل مسح الترابيزة بذيل جلبابه، واستدار ليدخل، ورأى التاكسى راجعاً بمؤخرته. نزل أبو كف يهز رأسه أسفاً ويقول إنه نسى. مد يده بما تبقى من الفكة، والرجل تراجع خطوة ورفض أن يأخذها. وأصر أبو كف، والرجل حلف الطلاق:

- أنت ضيفنا يا أسطى.

أبو كف رمقه لحظة ساكناً. كان يشخشخ بالفكة فى يده، ثم استدار عائداً إلى التاكسي.

***

توقف عند محطة بنزين وتحدث بالتليفون:

- كله تمام يا أفندم.

حتى هذه اللحظة كان فى طريقه إلى المعتقل. كلمة "المعادي" التى قالها الصحفى – وكان يسوق مستعيداً حوارهما – برقت فجأة. هو أيضاً يسكن هناك. لن يتأخر كثيراً. ساعة زمن. يرى امرأته ويلمسها.

- ولا من شاف ولا من دري.

حارس الرائد يقول إنهم يحسبون الوقت بعد التليفون. لو كان يعرف لأخّر اتصاله بالرائد.

الفكرة تروح وتيجي. يتأملها متردداً. ثم أخذت تلح وملأت دماغه. وامرأته تخايله كما اعتاد أن يراها فى عنبر السجن قبل النوم، قادمة من الحجرة إلى الصالة تلبس جلباباً على اللحم، وضوء النافذة وراءها يعرى جسدها واستدارته، ترفع ذراعيها تعقد شعرها من الخلف ويلتصق الجلباب بصدرها الممتلىء ويشف عن الحلمتين المنتصبتين. يستعيد المشهد مرة وأخرى. يحس وهو فى رقدته أن المساجين المجاورين له يرونها معه. يتكىء على كوعيه، ينظر إليهم واحداً. واحداً. يبادلونه النظرات، يعود إلى رقدته ويسحب البطانية على وجهه.

يستدير بالسيارة راجعاً، ويأخذ الطريق إلى المعادي.

أوقف السيارة غير بعيد عن البيت. لمح السندوتش. تمهل قليلاً حتى تناوله، ثم غادر السيارة.

لا أحد يسأل مسجوناً كيف فتح باب شقة. أشياء صغيرة يتعلمونها سريعاً فى أيامهم الأولى. ودائماً فى التفتيش نعثر فى جيوب الكثيرين منهم على سلك رفيع ثنى طرفه. قد لا يستخدمونه شهوراً. غير أنه من الأفضل أن يكون فى متناول أيديهم. وأمين المخزن أدرى بذلك من غيره، من يوم لآخر يجد قفل المخزن مفتوحاً. وعيب أن يكسروه. هو

أيضاً لا يحاول تغييره، فمهما كان نوعه وارتفاع ثمنه سينالون منه. يأخذون القليل الذى يكفيهم. شاى وسكر لبراد ممتليء. أرز يشبع اثنين أو ثلاثة، يطبخونه على "التوتو" فى العنبر، متحلقين، منتشين برؤية فقاقيع ماء الأرز تظهر وتختفي، يذكرهم طعمه بما كانوا يأكلونه فى الخارج.

دخل أبو كف الشقة. توقف لحظة فى الصالة. روائحها القديمة وكان نسيها. كل شيء كما تركه. مقاعد الأنتريه الثلاثة. فوطة اليد التى ترمى بها امرأته على مسند الكنبة عندما تسرع إلى التليفزيون لرؤية المسلسل. ترابيزة الأنتريه، سطحها الزجاجى المشروخ عالجه بورق لاصق. أزيز الثلاجة. فتح بابها. زبادي. جبن قريش تحبه امرأته، أربع حبات برتقال. حلة. رفع غطاءها. محشى كرنب. ياه. مازال المحشى موجوداً فى الدنيا. أصابعه الرفيعة، لا يعملها غيرها. وكيف تتلقاه؟. تصرخ؟. هو لا يريد الصراخ. باب الحجرة موارب. ضوء الوناسة الخافت. كان اقترح عليها أن تغلق الشقة وتذهب عند أهلها فى البلد. فى الزيارة التالية أخبرته أنها جاءت بأختها الصغيرة تقيم معها:

- علشان أعرف أزورك من وقت للتاني.

ورأى الشوق فى عينيها.

ماذا يفعل الآن بأختها؟ يرسلها تشترى شيئاً؟ لا يكفى الوقت. الأفضل أن يأخذ امرأته إلى الحجرة الأخرى ويترك البنت نائمة. لو رأته ستحكى عن خروجه ويكثر الكلام.

وجهها النائم. شعرها المبعثر. ومن يكون؟. وقف بمدخل الحجرة ساكناً. من؟ يلبس جلبابه المشمور حتى أعلى فخذيه. شعر ساقيه الكثيف. ذراعيه مثنية فوق وجهه. هى بالقميص الداخلي. ترقد على جنبها، وجهها للرجل. حمالة القميص انزلقت لمنتصف ذراعها، وخرج ثديها مسترخياً فخذها

العارى فوق ساقيه. "الكيلوت" الأسود ملقى بجوار الفراش فوق شبشبها الأخضر القطيفة. وكان من لحظات يضرب رجلاً صغيراً بالحزام. والرجل يتلوى ويئن. وهي؟ كانت من أسبوعين تزوره. ورأى الكحل كثيراً فى عينيها. كان واقفاً بجوار الفراش من ناحية الرجل. أراد أن يطفيء الوناسة ونسى. الرجل أنزل ذراعه عن وجهه. فتح عينيه، نظر إليه ثم أغمضهما. استرخى على ظهره. هى تتململ بعد أن سقطت فخذاها عنه. تغمغم وتغير من رقدتها. وجهه غير غريب. وأين رآه؟ كان قاعداً على حافة الفراش ينظر إلى الوجه. من الجيران. فى مسجد؟ سوبر ماركت؟. أطبقت يده على رقبة الرجل، واليد الأخرى فوق فمه. ارتفع جسده ثم سقط، عيناه جاحظتان مرعوبتان، ويداه تلوحان، دفع بهما إلى صـــدر أبو كف، يستطيع أن يبعد عنهما. رآهما تنهشان صدره، يدان نحيلتان بأصابع طويلة، وأظافر نظيفة. كان هادئاً يضغط بشدة، تراخت اليدان وظلتا على صدره. سمع الشهقة ورآها تجثو على ركبتيها وتنزلق خفيفاً بظهرها. كانت ترتعش كأنها قشعريرة. نظر إلى فخذيها العاريتين المضمومتين وثدييها الظاهرين وقد انحسر القميص إلى وسطها. جاءت عيناه فى عينيها. تومىء له، هَزت رأسها الخفيفة وكأنها تريده، وانفرجت فخذاها قليلاً. ربما غفل لحظة عن الرجل، جسده يحاول أن ينقلب على جنبه. شدد من قبضته. الفم مفتوح على آخره، ثم سكنت حركته. التفت. لم يرها. مسح فى الجلباب ما سال على يده من لعاب الرجل. كان لا يزال هادئاً، ثم بدأ يغضب. نظر حوله. أين؟. "الكيلوت" فى مكانه والشبشب. خرج إلى الصالة. وما يمنعها عن الصراخ؟ باب الشقة مفتوح. خرجت؟ ربما مختبئة على السلم. صعد ثلاث أو أربع درجات ولمح باب الشقة يغلق. ارتفع صراخها. اندفع يهبط السلم. وانطلق بالتاكسي.

***

الحارس ومعه رجل يلبس مدنى يقعدان على دكة صغيرة جنب باب المعتقل. أعطى مفتاح التاكسى للحارس الذى مدها إلى الرجل. ورأى الرجل بعد ذلك ينحنى ويفك نمرة السيارة من الأمام والخلف، وظهرت نمرة أخرى تحتها. وانطلق التاكسي.

دخل المعتقل والحارس وراءه. أعطاه هدوم السجن. كان يغير ملابسه حين قال الحارس أن سيادة الرائد فى غفوة على الكنبة فى مكتبه:

- يظهر حايبيت هنا. لو طلبك أقول لك.

***

نتبادل نحن الحراس ما نقرأه فى الجرائد. حكاية الصحفى جاء ذكرها أكثر من مرة. هو نفسه كتب مهاجماً السلطة وأسلوبها الخسيس. كان دليله ما قاله الرجل بعد العلقة. وردت جرائد السلطة:

" واحد سرقه لص وضربه ويريد أن يجعل منها قضية أمن دولة"

أبو كف لم يكن حكى بعد شيئاً لأصحابه فى السجن. ثم جاءت حادثة قتيل المعادى فرحنا نتابعها.

حارس منا كان يستأجر من بائع الصحف جريدة الحوادث ومجلة عن نجوم السينما لامرأته. ويعيدهما إليه بعد يومين. كان يأتى ومعه الجريدة وينبه علينا أن نحافظ عليها. وقبل أن يتصفحها أى منا يكون حكى لنا ما قرأه عن قتيل المعادى وامرأة أبو كف. ورأينا صورتها. كانت مليحة. تضم شفتيها وتشير بإصبعها. اتهمت فى التحقيق زوجها بقتل الرجل فى بيتها.

- وفين زوجك؟

- فى السجن.

وأنكرت معرفتها بالقتيل، ثم عادت فى عدد الجريدة التالى بعد إجراء الفحوص على الجثة إلى الاعتراف بعلاقتها به.

- بس زوجى هو اللى خنقه.
- شفتيه بيخنقه؟
- شفته.
- يمكن واحد يشبهه!
- هو. زوجى وعارفاه. فيه واحدة تتوه عن زوجها.
- كان يعرف علاقتك به؟
- حايعرف منين؟
- وقتله ليه؟
- وأعرف ازاي؟ اسألوه.
- وأخر مرة رأيت زوجك؟
- يوم الحادث.

وذكرت الجريدة أنه وجهت إليها تهمة الدعارة، وجارى التحقيق معها فى حادث القتل.

فى العدد التالى رأينا صورة مأمور السجن. كان أصغر سناً بملابس رياضية يرافقه كلب ضخم بطوق حول رقبته، تساءل والحارس يصب له القهوة. من أين جاءوا بها؟ ثم قال للحارس:

- كنت أيامها برتبة نقيب فى سجن القناطر.

نفى المأمور بشدة أن يكون أبو كف القاتل. فهو لم يغادر السجن لحظة. ولا رأى أسفلت الشارع منذ دخله. واسمه موجود فى كل كشوف التمام.

وحين سأله المحرر عن سلوكه؟

قال إنه مسجون هادىء. لم تصدر فى حقه مخالفة حتى الآن. يعنى ملفه نظيف.

فى عدد آخر من الجريدة عاد المأمور ينفى التهمة عن أبو كف.

وقال:

- استحالة يخرج. ده سجن. أسواره عالية وفوقها حراسة مسلحة. وبوابة عليها ثمانية حراس. إزاى يخرج؟ وهدوم مدنى كمان؟ مش معقول.

وأكد مرة أخرى على حسن سلوكه.

ويسأله المحرر عن رأيه فى اتهام امرأته له بالقتل؟

- تقول اللى تقوله. ولا تسألنى عن رأيي.

***

أرى أبو كف خلال هذه الأيام يذهب ويأتى فى أنحاء السجن، أو قاعداً أمام العنبر يشرب كوب شاى ويدخن سيجارة. يلم ساقيه أثناء مروري.

وعرفت أن شذرات مما تنشره الجرائد كانت تصله. وربما فى هذا الوقت حكى لأصحابه ما جرى. وتسرب الكلام إلينا.

ويوماً طلبه مأمور السجن، رأيته يسير خلف الحارس إلى مكتبه. كنت أعرف أن رائد المعتقل عنده.

خرج بعد قليل ومضى إلى أصحابه. كانوا ينتظرونه بمدخل العنبر. وبلغنى أنه تلقى تهديداً من المأمور إن فتح فمه بكلمة. وكان رائد المعتقل ينظر إليه طول الوقت ساكتاً. ثم قال مؤمناً على كلام المأمور:

- أنت عارف أعمل فيك إيه.

وربما شم أصحابه من المساجين رائحة خطر قادم فأحاطوا به. كان هناك دائماً اثنان يرافقانه عند دخوله دورة المياه، أو ذهابه إلى الكانتين، وحتى أثناء مشيه فى السجن. هو نفسه لم

يعد يبتعد عن أماكن تجمعهم. ونقلوا فرشته لتكون فى وسطهم ورأسه للحائط، وأكثر من فرشة يرقد عليها مساجين عند قدميه، وأصبح من الصعب أن يصل إليه أحد وهو نائم.

***

جاء شلبى من المعتقل ليشرب الشاي. سألنى بعد الكوب الأول إن كنت كلمت الرائد عن نقلي؟

- موش عارف أكلمه إزاي.
- استنه شويه. الأيام دى حالته موش ولابد.
- خير.
- حكايةٌ الصحفى اللى كنت حكيتها لى طلعت صح.
- مكتوبة فى الجرايد.
- عارف. موش كلها مكتوب.

رمقنى أصب له الكوب الثانى من البراد. قال:

- شوية شاي. إنما.

أخذ رشفة وقال:

- هايج فى المعتقل. ربنا يستر على المعتقلين. دخلناهم العنبر. قلنا لهم الشمس النهاردة شديدة تجيب مرض. وطبعاً ماصدقوش إنما دخلوا. نبعدهم عن طريقه. وبرضه مافيش فايدة. كل شوية زعيق:

"فين المعتقلين. موش شايفهم ليه؟"

"فى العنبر يا أفندم"

"يعملوا إيه ولاد الجزمة فى العنبر؟"

على هذا الحال طول اليوم. وشتيمة أجارك الله.

- إيه الحكاية؟

- حا أقول لك. إنما ماتكلموش فى موضوعك اليومين دول.

كنت أضع براد الشاى على "التوتو" الذى استعرته من مسجون حتى يظل الشاى ساخناً. قال:

- صوته فى مكتب العقيد كلنا سمعناه:

"ياخدوا اللقمة من بين أسناني."

ده كلام رائد يقوله يا سالم. والعقيد يقول:

"اهدأ. اهدأ. حاسب من الغلط"

"بعد إيه يا أفندم. ده شغلي. عمليتي."

"الحكاية انتهت. اسكت. ولا تقدر تعمل حاجة. واللى على رأسه بطحة يحسس عليها. زى ما بيقولوا"

"صحيح. وبطحة كبيرة يا أفندم"

شرب كوب الشاى الثالث. وتنهد فارداً ساقيه:

- خلى الشاى على النار. وهو بارد مالوش طعم. شوف.

وحكى.

- أخبار وصلت الصبح من الإدارة. يظهر إنهم هناك أخذوا لنفسهم عملية الصحفى اللى حكيت لى عنها، وجاءهم كلام شكر كبير من فوق، وترقية لثلاثة منهم. حايعملوا حفلة بالمناسبة دي.

يحضرها الرتب الكبيرة بس. ومنهم عقيد المعتقل.

ألمح من مكانى المتوارى خلف الشجرة ظهر مقعد العقيد الهزاز. كان يخرجه من مكتبه فى مثل هذا الوقت حيث يمتد الظل ويغطى الطرقة.

المقعد خال. والجريدة التى كان يقرأها مطوية فوقه.

***

بدأت محاولاتى للتقرب منه. حين أراه عند الحاجز من الناحية الأخرى أقترب وألقى التحية بحماس. يلتفت ويومىء برأسه. أظل فى وقفتى المشدودة حتى يبتعد.

ومرة كلمنى بعد التحية:

- عارفك. وكنت أعرف والدك. وكتير كان يراعيني. وأنت..

- يا أفندم أنا فى الخدمة.

- خدمة إيه يا راجل. اسأل لو أنا عايز حاجة.

- يا أفندم أنا فى الخدمة.

- فكرتني. ادخل.

فك سلسلة الباب وتبعته إلى داخل المعتقل. وقف فى ظل شجرة. ووقفت غير بعيد:

- والدك كان من وقت للتانى يجيب لى حتة تعدل المزاج. تخلينى أستحمل المنفى الزفت اللى إحنا فيه. أدخنها فى الزفت التانى اللى إسمه سكن. وأنام. وما سألتش والدك بيجيبها من فين لأن دى أسرار. وهو لا كان بيروح هنا ولا هناك. فهمت؟

- فهمت يا أفندم.

- حاتقدر؟
- أقدر يا أفندم.
- أشوف.

أعرف تاجر المخدرات فى السجن. أخذ مؤبد. وعرض علىَّ مرتين أن أجربه محبة. وأن امرأتى ستدعو له بطول العمر. وأقول له ضاحكاً:

- الصحة تمام من غيره.
- زيادة يا سيدي. ولما تكون دماغك آخر تمام دى حدوته تانية.

لا أعرف كيف كانت البضاعة تصله. لابد أنهم الحراس. كان يعطيهم حين يطلبون، ومنها ما يذهب إلى بعض الضباط، ولا يحاول معرفتهم. ولأنها بدون مقابل كان يعطيهم مما فى جيبه الأيسر. فيما بعد عندما توطدت العلاقة بيننا حكى أن الصنف فى هذا الجيب دون المستوى، وأحياناً يكون مغشوشاً.

- وفيه اللى يطلب منه تاني. تقول إيه؟. غشم. الواحد يحترم اللى يحب الحاجة الحلوة.

ما فى جيبه الأيسر من ليبيا. ربما يخرج منها نظيفاً. فالليبيون أولاد حلال. غير أنه فى مسيرته عبر الصحراء تعبث فيه الأيدي. وهو عمل فى ليبيا خمس سنين. الحكومة صعبة. إنما الصنف متوفر. تعلمت تدخينه هناك. الجوزة عندهم شبه الشيشة وبطول عيل سنه عشر سنين. خرطومها طويل يخرج من الشباك، الحرمة فى الداخل ترص الحجر بعد الحجر ومعها ضيوفها. يتكلمن فى قلة الأدب ويشاهدن التليفزيون مع قزقزة اللب. وأنت متربع على مصطبتك تدخن ومعك أصحاب. تأخذ نفسين وتتف وتشتم الحكومة.

الجيب الأيسر أعطى منه للحراس اللى يعطونه للضباط. وما يهمنى

من الضباط. لا تسمع منهم غير طول اللسان، وإن تلفت رأس واحد منهم بسبب رداءة الصنف خير وبركة. الجيب الأيمن فيه الصنف الأصيل، باكستاني. أصحاب الذقون والمزاج، وبتوع عيال. عندهم النسوان حلوة. إنما تقول إيه.

- والمصري؟

- العياذ بالله. غلبان زى صاحبه. حشيش أخضر يزرعوه فى الغيطان مع برسيم البهائم. بانجو. وعلى السطوح وفى البلكونات. يتلف الدماغ. يخربها. كل حاجة لها أصولها. جيبى اليمين أعطى منه المساجين. عشرة عمر. ويدفعون. أوقات بالدين. الغنى منهم يدفع فى الخارج. يرسل لأم العيال واحدة من طرفه بالثمن وزيادة.

ضحك. كان منحنياً ينظف حذائي. استطاع بقطعة من جيبه الأيمن أن يحصل على عمل يجرى وراءه الكثيرون، تنظيف أحذية الضباط والحراس والكتبة. يتجول بين المكاتب والصندوق معلق بكتفه.

- واحد هنا حالته ميسورة. ويدفع فى الخارج. سحب كتير. مراته صغيرة وحلوة كما بلغني. صعب عليها أن تدفع لأم العيال الفلوس. مرة ومرة وكبر الدين. فقلت له. تفتكر عمل إيه؟ طلقها. آه والله طلقها. وأمه اللى بدأت تدفع.

طلباته منى قليلة. بلوفر صوف ميرى زائد عندي. شراب. أشياء أستطيع أن ألبسها تحت هدومى عند دخول السجن. ودواء للبواسير التى يشكو منها. الأشياء غالية الثمن يكلف امرأته بها وترسلها مع غلام إلى بيتي.

فى شهر الصوم يتوقف عن استخدام الصنف أو بيعه. ويخرج الزكاة. يختار واحداً من المساجين ليقوم بالتوزيع بينهم. ويختارنى للتوزيع بين الحراس. يدس لفة النقود فى جيبى ويذكرني:

- اللى عنده عيال أكثر.

بعد شهور من كلامه معى وجد مقتولاً بدورة المياه. والفاعل مجهول. المساجين كانوا على ما يبدو يعرفونه والتزموا الصمت. نحن الحراس عرفناه بعد قليل والتزمنا الصمت أيضاً. هو يكاد يفصح عن نفسه. يسير متوتراً يلتفت لأقل صوت. يفسح له المساجين حين يكون قادماً، ويتردد فى السير من بينهم، يأخذ دورة واسعة حولهم ليتفاداهم. لم نعرف ما دفعه لقتل الرجل، ربما كان القتيل ينفر منه، ورفض التعامل معه بسبب جريمته التى دخل عنها السجن. قتل أمه. ورغم أنه فى التحقيق ثبت وجود علاقة لها مع واحد من الجيران مما أنقذه من الإعدام. إلا أن ذلك لم يغفر له عند التاجر.

تفادى النوم فى العنابر وتحت الأشجار، واستعمال دورة المياه، واكتشفنا نحن الحراس أنه كان ينام فى حجرة الإعدام، حيث عثرنا على بطانيته وداخلها غيار بعد مقتله. يفتحها كالعادة بقطعة السلك، يخرج منها باكراً قبل أن يصحو أحد فى السجن، ويستخدم دورة مياه الحراس، ثم يقبع ساكناً على حجر غير بعيد عن حراس البوابة. لابد أن المساجين تعبوا من محاولة الاختلاء به، ما فعلوه كان يتسم بالتهور. هو يقف جانباً مثل كل يوم ينتظر أن يخف الزحام على التعيين. وحين خلا المكان تقدم. استدار ومشى أربع خطوات وعيناه على وعائه حتى لا يندلق منه "اليمك". التف حوله فجأة مجموعة من المساجين، فتح فمه ليصرخ. دست ورقة فى حلقه. لحظات وانفضت المجموعة من حوله. سقط على وجهه. زحف قليلاً وانطوى ثم سكن جسده وقطعة الحديد المدببة مغروزة فى صدره. وذابت مجموعة المساجين بين الآخرين.

***

قال الرائد:

- تمام التمام.

ضحكت في داخلي، فالحتة جاءت من الجيب الأيسر.

كنا واقفين تحت نفس الشجرة. قال:

- أحسن من اللى كان والدك بيجيبها. يمكن بتتعامل مع واحد تاني.

وضحك رافعاً يده:

- خلاص. موش حا أسأل. ولا عايز أعرف مين.

فى هذه الوقفة أخبرته عن رغبتى فى العمل بالمعتقل. تأملنى لحظة وسألني:

- وإيه عاجبك فيه؟

- الشغل أنظف.

- صحيح. إنما السجن سايب. وهنا انضباط.

- وده أريح يا أفندم.

عاد يتأملني. أحسست أننى تحت الفحص. قال:

- بتقول فيها؟ أنا رايح الادارة قريب. حا أشوف. فعلاً محتاج واحد زيك.

***

يومان وطلبنى الرائد.

كان واقفاً بالطرقة أمام مكتبه. قال:

- ساعدهم. حا أستأذن لك من حضرة المأمور.

أشار إلى ستة حراس منهم شلبي. كانوا واقفين غير بعيد بالفناء وبيد كل منهم خيزرانة رفيعة، أعطانى شلبى واحدة. قال إن باقى الحراس خرجوا للمحطة، عائلة سيادة العقيد قادمة فى الديزل المكيف لقضاء الإجازة، معهم أكل يملأ حجرة. لحمة وزفر وحتى العيش، والرائد يعسكر عندهم طول الزيارة. حانستريح شوية. عينه على بنت العقيد. والبنت موش عايزة. والعقيد عايز. آهو.

خفض صوته: موش صابر على توقيع الجزاء. كان بيكلمهم فى أمان الله. دقيقة وتعكر مزاجه. سب وشتيمة. أمك وأبوك. ثلاثة منهم كانوا بيكلموه، سحب أربعة غيرهم وزعق:

"خذوا السبعة"

- عملوا إيه؟

- الجريدة.

- يادى الجريدة.

- كتبوا حاجة عن الدولة البوليسية وأجهزتها القمعية، أنا موش فاهم يعنى إيه قمعية. يمكن قصدهم اللى بتضرب. قالوا الأجهزة بس مصاريفها تشفط نصف ميزانية البلد، وشغلتها تحمى السلطة. حضرة الرائد شاف الكلام. زعق:

"شيلوا الكلام الفارغ ده"

واحد منهم قال:

"نستنى سيادة العقيد"

هو قال كده وحضرة الرائد هات يا ضرب، بيده ورجله، كانوا بيجروا أمامه، وقطَّع الجريدة، وزى ما أنت شايف.

- ما يفضوها حكاية الجريدة دى. ويستريحوا من الأذى.

- فضوها يا سيدى. أسبوع والثانى وسيادة العقيد أمر ترجع.

- إيه ده؟
- آه والله زى ما بقول لك. طلع إنها سبوبة عشان يضربوهم من وقت للتاني.
- وإحنا محتاجين سبوبة.
- تفرق يا سالم. الضرب من غير سبوبة مالوش طعم. زى رفس الحمير. أسألنى أنا. سنين فى المعتقلات. يخلى المضروب عايز يخربش. إنما بسبوبة يبقى رايق موش عبيط، وطعمه مقبول، الواحد ينضرب صحيح. ويغضب. ويزعق. إنما مستريح. فاهمني؟
- ولا فاهم حاجة.

كنا أخذنا جانباً عن الباقى اقتراباً من الظل، الخمسة الآخرون بعد أن لسعتهم الشمس غيروا أماكنهم.

- لما تيجى المعتقل يمكن يعطوك دورة تدريبية. أنا أخذتها. أسبوع. كان الأستاذ يقول لنا " قبل ما تضرب شوف سبب. أى سبب. ولو عقب سيجارة والع."

سكت. هز رأسه خفيفاً وقال:

- يا سلام لو شوية شاي. الكلام بدأ يحلى. وحاجة تانية يا سالم، الجريدة بتشغلهم. اسمهم بيعملوا حاجة وبيشتموا. من غيرها حايفكروا فى مشاكل إحنا فى غنى عنها. وظهر أن فيه حاجة ثالثة كمان. الادارة نفسها عايزة الجريدة تستمر. يعنى موش مزاج سيادة العقيد، عجبتهم هناك فكرة الجريدة، وسمعت أنهم حايعمموها فى كل المعتقلات. باشكاتب المعتقل بيلخص بنفسه كل عدد ويرسله لهم. اسألنى ليه؟ شباك مفترح بيبصوا منه. يشوفوا اللى بيفكر فيه المعتقلون، هم وأصحابهم اللى برة المعتقل. آه. ده سايب على ده، وأنا وأنت بنتفرج ونقول حاضر.

- وأسبوع التدريب. كنت مقيم فى القاهرة؟

- إقامة كاملة. بدل أكل. بدل لوكاندة. بدل انتقالات. نايم قايم على حسابهم. حتى الشاى بين المحاضرات. أيام حلوة. اثنان من كل معتقل. كل واحد فينا وجد له قريب حتى لو من بعيد وراح قعد عنده. وتركب الأتوبيس بالبدلة الميرى وتبص للكمسارى يسكت.

ظهر الرائد على باب المكتب. أشار لنا أن نبدأ. جلس على مقعده الهزاز فى مواجهتنا، ورفع يديه فارداً أصابعه العشر بعدد الضربات، ثم يداً واحدة فرد منها إصبعين. لمحت المعتقلين السبعة ينظرون إليه أيضاً، والتفتوا إلينا. الآخرون وقفوا غير بعيد وكأنهم بوقفتهم المسترخية يهونون مما يجرى.

تقدم السبعة نحونا. هم على ما يبدو من يسعون إلينا، ويختار كل حارسه ويقف أمامه، وكنت سمعت من شلبى أنهم يعايرون من يتخاذل أو يئن كثيراً.

كان من نصيبى أصغرهم سناً. الخامسة والثلاثون تقريباً. وجهه هزيل. ورعشة خفيفة تكاد لا ترى بطرف عينيه اليسرى. خلع نظارته ووضعها فى جيب السترة. رمقنى بنظرة ثابتة. لم يعجبنى الحال. دفعته بيدى نحو المكان المشمس.

انكفأوا فيما يشبه القوس مفسحين أماكن بينهم للحراس وقد خلع كل سترته ووضعها بين فخذيه. هم لن يلبسوها عقب الضرب حتى لا تلمس جروحهم.

الظهر العاري. أبيض شاحب. انتبهت من خواطري. يشف عن فقراته، شعيرات زرقاء على الجانبين. زغب خفيف يقترب من الإليتين حيث يتجعد الجلد فى ثنايا صغيرة خلفها رباط البنطلون الذى انزلق قليلاً. سبحانه يعطى الرجل ولا يعطى المرأة. ظهر امرأتى

العارى وقد انحسرت عنه البلوزة منكفئة تبحث عن فردة شبشب تحت السرير. عمودها الفقرى يغطس فى مجرى عمقه بوصة، ضفتاه من اللحم المكتنز المبتل بالعرق تتفرع منها أخاديد تتلاشى عند الجنب، وحسنات سوداء تتناثر قرب الكتفين.

ضربتى الأولى جاءت عنيفة. تقوس الظهر واختلج. انتظرت حتى هدأت رعشته وهويت بضربتى الثانية، كانت أشد عنفاً. تلقاها الظهر ساكناً، الخط الأحمر الذى خلفته تلاقى مع الخط الأول وافترقا. أجدنى مندفعاً، صوت كأننى أزوم. انتهت الضربات. أكتم لهاثي. العرق فوق عينى يكاد يحجب الرؤية. تراجعت خطوة، ثم خطوتين.

نهضوا من رقدتهم، يمسك كل منهم سترته فى يده. مشوا نحو الآخرين الذين أفسحوا لهم. ودخلوا العنبر.

***

قال إن اسمه رجب.

كنت انتقلت للعمل بالمعتقل من شهور. ضربته خلالها مرتين، التقيته وأنا فى طريقى للمطبخ بحثاً عن كوب شاي. سألته إن كان له مدة طويلة بالمعتقل؟

- سنة وشوية.

التقط غطاء زجاجة من الأرض وراح ينفض ما علق بها من رمل.

- أول مرة؟

- ثاني.

- وكانت برضه هنا؟

- لأ. فى ليمان طرة.

- والتهمة.

- من غير. أنت جديد؟
- آه. أول عمل لى فى المعتقل. وشغلك؟
- كنت أستاذ جامعة. اقتصاد.
- كنت؟
- آه. تركتها. الأمن هناك يقرف. تقارير أمنية وخلافه.
- تسيب الجامعة عشان تقارير أمنية.
- موش التقارير الأمنية وحدها. ولو أنها تخليك تطفش من البلد. فيه حاجات تانية.
- حاجات إيه؟
- بتسأل ليه؟
- أفهم.
- ولما تفهم حاتعمل إيه؟
- ولا حاجة. بس أبقى فاهم.

عرضت عليه سيجارة. اعتذر شاكراً.

- طيب كوب شاي؟

اعتذر أيضاً، ضحك وتركني.

فى لقاء آخر جاء أيضاً صدفة بالفناء كلمته عن بيتى وبرج الحمام، وابنى الذى رأى الدنيا من عامين. قال متعجباً:

- بتربى حمام؟
- من سنين.
- تأكله؟
- أبداً. لو ربيته ما تحبش تأكله. تيجى ازاى؟
- صحيح.
- كانت أمى تشتريه أيام والدي. وكنت آكله. لما ربيته نفسى انسدت

عنه.

- وبتعمل به إيه؟ بتبيعه؟

- ولا أبيعه. كفاية تشوفه يطير ويرجع، ويلقط الحب من يدك.

أول مرة أتكلم فيها عن الحمام مع أحد. أحسست زهواً وأنا أراه يسمع ويومىء برأسه.

- ويعرفني. أول ما أظهر على السطح يحط على كتفى وذراعي.

آهو. حاجة تسلي.

- ويخليك تفرح.

- بتقول فيها. أنزل من عنده زى المغسول. وأنسى كل وجع الدماغ.

حتى مراتى تقول لى هو الحمام بيعمل فيك إيه؟

يضحك بكل وجهه كالطفل. قال:

- وتلاقيها من يوم للتانى تقول لك اطلع شوف الحمام.

ضحكت:

- آه والله بيحصل. قم يا سالم بص على الحمام. وأقوم.

أخذنا الكلام هنا وهنا، وقلت فيما قلت إن امرأتى تطبخ أحسن بصارة. قال:

- آخر مرة أكلتها كان أيام أمي. من عشر سنين.

- لولا الظروف كنت..

ضحك كثيراً. قال:

- عارف.

وتركني.

حدثنى عنه شلبي. قال:

- صاحبك اللى ضربته أكثر من غيره. عرفت أنه حاجة كبيرة فى الاقتصاد. له أربعة مؤلفات، وينشر أبحاثاً فى المجلات. واحد صاحبنا

فى الإدارة بيقول إنه كتب أكثر من مرة عن الانهيار الاقتصادى فى البلد، والكبار المسعورين اللى وراه، وبيقول الكلام ده بالأدلة. يعنى ما يقدروش يحاكموه بتهمة السب والقذف. ويظهر عشان كده جابوه هنا. وآدى إحنا بنتفرج.

- يا أخى حاجة تحير. ناس كبيرة. وتتكلم مع الواحد منهم ولا كبير ولا حاجة. زينا. وتأخذ وتدى معاه فى الكلام.

- عشان لسه فى الأول. بكرة تتعود.

***

قال الرائد لى يوماً وكان جالساً فى مقعده الهزاز:

- إيه الأخبار. مبسوط؟

- البركة فيك يا أفندم.

- الحقيقة مكانك فى السجن موش هنا. عارفهم هناك أكثر. والأهم اللى بيفكروا فيه. يعنى بتاخد عليهم بسرعة وياخدوا عليك. إنما هنا صعب.

وضحك:

- صعب علينا كلنا. شايف زمايلك هنا. بقى فيهم شبه كبير من المعتقلين. ويتكلموا زيهم. حتى الكلمة اللى بيقولوها موش بتاعتهم. والواحد منهم يخفى نص الكلام ويقول النص اللى ما يضرش.

أشار لى بالانصراف، ثم عاد وسألني:

- مالقتش واحد غير اللى اتقتل فى السجن؟

- بشوف يا أفندم.

- الحتة بتاعته كانت حلوة.

يكلفنى بأعمال لا يكلف بها حارسه الخاص. أحمل ما يصله من أشياء. ملابس مغسولة ومكوية وأحذية ومأكولات وأتبعه إلى السيارة.

أحياناً أرافقه لأصعد بها إلى البيت، سكنه في بلوك الضباط فوق هضبة تطل على بلوكاتنا، حوله سور ببوابة، ولمبات صغيرة بامتداده تضيء طول الليل.

ومرات أذهب بالأشياء مع السائق إلى البيت، فغير مسموح للسائق بالصعود. لا أدرى لم يخصنى بهذه الثقة. وأجد امرأة عجوزاً تنظف البيت، أعطيها ما أحمله وأمضي.

حتى كانت مرة فتحت لي فتاة في العشرينات. ما رأيته جعلني أتراجع خطوة وأقف خارجاً. كانت ترتدى سترة بيجامة رجالي كبيرة عليها، ولا شيء آخر، والسيجارة مشتعلة في يدها. خفضت بصري، وتوقفت عيناى على فخذيها البضتين. قالت:

- ادخل.

دخلت. أغلقت الباب بقدمها الحافية. أخذت الملابس من فوق يدي، وظلت المأكولات على اليد الأخرى، سارت إلى الداخل ثم عادت.

- تعال.

مشيت وراءها إلى المطبخ. أخرجت السيجارة من فمها ووضعتها بين إصبعي يدى الخالية:

- امسك دى.

راحت تنقل المعلبات من فوق يدى الأخرى إلى دولاب المطبخ:

- كده تمام.

أخذت السيجارة من يدي:

- وأنت بقى مين؟ برضه حارس؟

- أيوه يا أفندم.

- حلوة أفندم دي. والبيه فين؟

للحظة لم أعرف من تقصد ثم انتبهت:

- جاى بعد ساعتين.

كانت تنحنى بلا حرج، تلتقط فتافيت من على السجادة، وبانت مؤخرتها و"كيلوت" صغير بلون أزرق يستر ما بين إليتيها.

- وبتشتغل إيه هناك؟

- حارس يا أفندم.

- سيبك من أفندم وقل يا مدام. حارس إيه؟

- حارس.

- طيب اقعد يا حارس – ضحكت – أعمل لك شاي؟

- سيادة الرائد منتظرني.

- هو رائد؟ افتكرته حاجة أكبر من كده. دقيقة أعمل لك الشاي. وموش حا أقول له انك شربت شاي.

- السواق تحت يا أفندم مستني.

- هو فيه سواق كمان. لأ. مقدرش على اثنين.

وانفجرت ضاحكة ورمت برأسها للوراء. سترة البيجامة بدون ياقة، كشفت عن جانب من كتفها وصدرها الذى بدت فوقه خدوش رفيعة تمتد نحو رقبتها.

تقدمتنى إلى الباب.

وخرجت.

***

كبر ابني. صار له شارب. لم يستمر فى المدارس. تعلم القراءة والكتابة واكتفى. حاولت أن أصحبه للمعتقل يعلمونه هناك. كان حاسماً:

- لن أدخله إلا سجيناً.

عمل نجاراً فى البلدة المجاورة. يصنع دواليب ومقاعد ومكاتب. هو من صنع لى مقعدى الهزاز. كنت أكلمه على سبيل الهزار:

- اعمل لى كرسى يروح وييجي.

أخذ كلامى بجدية.

اشترى موتوسيكلاً يثير ضجة فى الشارع، يذهب به لعمله ويعود محملاً بقطع مصقولة من الخشب، يعكف عليها فى حجرته يصنع منها البراويز وأشكالاً يبيعها للمحلات.

سرعان ما ظهرت بنت من الجيران فى البيت تساعد امرأتي. حاولت أن تدخل حجرته لترتيبها، غير أنه أخذ يغلقها بالمفتاح ويحتفظ به خوفاً على الأشكال الخشبية التى يرصها على الأرض.

الولد غير مشغول بالزواج. يعد نفسه للانتقال إلى البلدة عندما يجد سكناً مناسباً. لم يبد اهتماماً بالبنت، أكون فى حجرتى وألمحها تظهر

فجأة فى طريقه، صدرها بارز فى تأهب، يحاول أن يتفاداها، تقرصه فى جنبه وأحياناً فى إليته والضحكة ساكتة على وجهها. يمضى دون كلمة.

كنت فى وضع حرج. والدها حارس فى السجن، يسكن فى بلوك آخر قريب. لم يكن بيننا غير السلام، والآن أراه كل صباح قادماً، نمشى معاً إلى السجن، ما زلت أدخل المعتقل عن طريقه بدلاً من السير طويلاً بجوار الأسوار حتى باب المعتقل.

فى طريقى يكلمنى بمودة عن كل ما يخطر له. مأمور السجن الجديد. ما قاله وما عمله. المساجين وحوادثهم، الفئران التى كثرت فى البيوت:

- تفتح أى درج تنط منه.

أحس به يرمقني. ينتظر على ما يبدو أن أكلمه بشأن البنت. فى النهاية يسألني:

- عاملة إيه البنت معاكم؟

- لا أراها.

- ليه؟

- طول الوقت قاعدة مع الحاجة وأنا فى مطرحي.

- هى تعز الحاجة قوي.

- صحيح.

- ابقى خد وهات معاها فى الكلام. دى حافظة كل أفلام ومسلسلات التليفزيون. تقول لها اسم الفيلم تحكى لك حكايته.

ونفترق فى السجن.

تأتى البنت فى الصباح الباكر قبل خروجى وتغادر مع صلاة العشاء، أحياناً تأخذ قيلولتها ممددة على الحصير بجوار امرأتى المستريحة أمام التليفزيون. وترى البنت تغط فى النوم، تفرد فوقها ما يغطى

- وده كل همه شغله. لا يفكر فى وظيفة ولا بيت ولا أولاد. عايز يبقى صاحب ورشة.

- ربنا يساعده.

- كان نفسى أفرح به فى حياتي. ماحدش ضامن عمره.

تمهلت خطوته. سأل فى صوت مبحوح:

- هو حصل إيه؟

- بيقول ولا عشر سنين. ليه؟ ماعرفش.

توقف عن المشي. شاربه يرتعش:

- وبنتي؟

- مالها بنتك؟

- لها أكثر من شهر قاعدة عندكم؟

- بتزور الحاجة.

- حاتعمل إيه بالحاجة. أختِى وشى فين من الناس اللى بيباركوا. واللى شافوا البنت داخلة خارجة عندكم؟

- وإحنا عملنا إيه؟

- عملت إيه؟ بتستهبل؟

وجهه محتقن بالغضب. قال كلاماً كثيراً فيه شتائم تصل إلى قلة الأصل، ثم تركنى وعاد إلى بيته.

بلغنا ما قالوه عنا. كان يصلنا أولاً بأول، ونالت امرأتى النصيب الأكبر. فهى لا تعرف الطبخ. حتى شوية الرز، ابنتهم علمتها، وأنها – امرأتى – تشخر وهى قاعدة صاحية. وتهرش ظهرها دائماً بعصا. وأنها ستأخذ ابنها للدكتور فى القاهرة لأنه يشكو من حاجة لا تريد امرأتى الإفصاح عنها، وحين عرفت أن البنت عندها خلاط مالت عليها وباستها. وهم بعد كل ما شافوه رأوا أن يصرفوا النظر.

توقفت عند كلامهم عن الخلاط، وخطر لي أن امرأتي ممكن أن تفعلها. ليس بمعنى أن تبوسها، ولكن شيئاً قريباً من ذلك. فهي من بداية زواجنا تلح على شراء واحد. ورغم شكوى امرأتي من البنت كنت ألمح في عينيها زهواً بمجيئها يومياً إلى البيت.

حين رأى ابني الجو مشحوناً أخذ هدومه وأشياءه في ربطة خلفه على الموتوسيكل ورحل إلى البلدة. البنت سافرت بعده بأسبوع إلى بيت خالتها. وأبوها حين يلمحني يغير من اتجاهه.

الجيران أيضاً، بعضهم خاصمنا. لا كلمة ولا سلام.

وكان علينا أنا وامرأتي أن نتحمل في سكوت.

***

أحمل المقعد الهزاز إلى السطح. أسترخى فوقه. الوقت باكر. الأفق بلون رمادي. وضباب خفيف يتصاعد.

التلال الثلاثة على مرمى البصر. أتعجب من خضرتها الزاهية تحوطها كثبان الرمال. تبدو الأشجار بكثافة أغصانها غريبة عن المكان. تقصدها الطيور الشاردة، والعابرون عندما تلفحهم الشمس، وحراس السجن الذين أصابهم الخبل.

يحط الحمام على كتفيَ وظهر الكرسي، ويتجمع حول يديَ الممتلئتين بالحب. بينها حمامة صغيرة لونها أبيض مع قليل من اللون الرمادي، تحلق لمسافات قصيرة وتعود. هديلها مازال ضعيفاً. تتفادى الزحام وتتسلق صدرى بساقيها النحيلتين وجناحاها متأهبان للانطلاق. تلتقط الحب من فمي، وأكون أعددته لها بين شفتيَ. حبة بعد الأخرى. منقارها صغير داكن. أطبق عليه أحياناً بشفتيَ. وأجدها ساكنة وقد طوت جناحيها بشدة، ونشبت أظافرها بسترتي، ثم تأخذ فى الابتعاد، وتظل على صدري. يخطر لى أن حمامة بجمالها لابد أن يتبعها ذكر. وألمحه يجاهد فى الصعود إليها. كان صغيراً مثلها، مازال يحلق

لمسافات قصيرة، يقترب منها أخيراً. ينقرها فى رأسها. لا تلتفت إليه، وتحلق إلى البرج. وهو على صدرى يرمق الحب بين شفتيَ ولا يقترب منه. يهبط ويندس فى الزحام حول يدي.

***

جرت تغيرات قليلة فى المعتقل. جاءت متلاحقة وشملت بعض الضباط. وانشغلنا نحن الحراس بحزم أمتعتهم ومرافقتهم واحداً بعد الآخر إلى المحطة.

العقيد نال رتبة أعلى وأحيل إلى التقاعد. لم نره وقت صدور القرار. أرسل إلى المعتقل لنقوم بشحن أمتعته وألا ننسى الصور التى فى مكتبه. الرائد كان لا يزال بيننا، سأل حائراً:

- أى صور؟

صورة الرئيس معلقة على الحائط، وصورة الرئيس السابق على الأرض ووجهها للجدار بجانب المكتبة المصفوف عليها بعض أطباق الزينة.

قال الرائد بعد بحث:

- مفيش غير دى.

وأشار إلى صورة الرئيس السابق:

- الأخرى من عهدة المكتب.

قال الباشكاتب مشيراً إلى صورة الرئيس السابق أنها أيضاً عهدة مرتجع.

قال الرائد:

- المرتجع بيكهنوه. ابعتها للعقيد وعالجها فى دفتر المرتجع على أنها تلفت ولو أنى أشك فى أنها اللى بيقصده.

نقل الرائد إلى معتقل آخر مع ترقيته بعد مجيء العقيد الجديد بأيام. وضع علامة الرتبة الجديدة على كتفه حين وصل القرار. كان مزهواً. يكلمنا وهو ينظر إلى الأفق ليسمح لنا برؤية العلامة وكانت من الذهب.

طالت التغيرات المعتقلين أيضاً. خرج كل من عرفناهم طويلاً. وقبل رحيل الدفعة الأخيرة منهم بيوم جاء آخرون، أفرج عنهم بعد شهر من مجيئهم وكنا بدأنا نعرف أسماءهم. وجاء آخرون، كان العدد كبيراً هذه المرة، لم يستوعبهم العنبر. نصبنا لهم خياماً بجواره. لم ينتظروا حتى ننتهي. مدوا الفرش فى الفناء أمام العنبر واستلقوا. بعضهم كان يكلمنا ولا نرد عليه:

- إنما شوية هوا عندكم يرد الروح.

- وجاف وخال من الميكروبات. خسارة فيكم.

- خسارة ليه؟ ما شاء الله. بقيتم زى. ولا بلاش أحسن تزعلوا.

رأيت وجه من قال الكلام الأخير وحفظته، ونويت أن أجعله يبلع كلامه بعد أن أنتهي.

قيل أنهم المتظاهرون، وأنه مجرد أسبوعين ويفرج عنهم، ومرا الأسبوعان واكتمل العام، وما زالوا معنا. يثيرون الكثير من الضجة.

عددنا نحن الحراس قليل لا يتناسب والدفعة الأخيرة. استعان عقيد المعتقل الجديد بحراس من السجن جاءوا بلا رغبة. كانوا يتسللون من وقت لآخر إلى السجن ليتناولوا طعامهم وشايهم هناك.

وهوى جانب من السور بطول عشرة أمتار، غير التشققات التى

سرت فيه لأمتار أخرى. كانت شاحنة تجرف الرمال فى الخارج، تقهقرت قليلاً لتبعد عن الحفر. اصطدمت مؤخرتها بالسور. الخبطة خفيفة، لم يصب صندوق السيارة بأى التواء. عجبنا من هشاشة السور وكنا نظنه غير ذلك. قمنا بحراسة الفجوة ليل نهار ومعنا السلاح حتى انتهى الترميم.

قال المقاول وهو يجمع رجاله وأدواته :

- السور كله تعبان.

ذكرنى ذلك بما جرى من سنوات. أعلن الرئيس أنه لن يبقى معتقل واحد مفتوحاً فى عهده، والتقطت له الصور وهو يوجه ضربته إلى سور معتقل عتيق وحوله الحاشية، تقدم واحد منها وسحب منديلاً ملوناً من جيب سترته العلوى مسح به يد شاكوش قبل أن يسلمه للرئيس الذى رفعه وهوى به، سقط حجران كبيران إلى الناحية الأخرى. لم يستطع الرئيس أن يخفى دهشته أمام الكاميرات وصيحته:

- إيه ده؟

وقبل أن تبتعد الكاميرا، أطل وجه من الفجوة، حدق بذهول فى الرئيس الذى صاح متراجعاً:

- أنت مين؟

- المعتقل عبد السميع.

بعدها بلغنا أن السور هدم بأكمله، وأعيد بناؤه بالخرسانة.

***

سألت الباشكاتب وأنا أمد له أوراق الإفراج عن البعض من الدفعة الجديدة لمراجعتها:

- ما جاش يوم كان المعتقل فاضي؟

- أما سؤال؟ بس حصل مرة. من سنين.

رجع بظهره للوراء. وجهه العجوز الضاحك:

- ولا واحد كان فى المعتقل. العنبر قفلناه. القوة كلها. كتبة. حراس. ضباط. كانت زى الفراخ الدايخة. يقعدوا شوية. يمشوا شوية. تبص للمعتقل من أوله لآخره. اسكت هس. لا له طعم ولا لون. إحنا الكتبة غيركم. مفيش شغل نسحب القديم نبض فيه تاني. ونزهق. كل واحد يسحب كرسى ونقعد فى الطرقة. ونشوف الضباط عملوا زينا. والحراس فرشوا قعدات الخوص وتربعوا. لا فيه ميرى ولا انضباط. ومين يفكر فيه. يوم وراء يوم ومفيش خبر عن معتقلين، فكرنى ببلاد الناس فيها تقعد تستنى المطر.

وجهه الشارد وهو يحكي:

- كان حالنا حال والحراس اشتغلوا فى النظافة على الأقل المكان يبقى نظيف. مشوا فى المعتقل يجمعون الزبالة فى مقاطف. وجرُّوا

الزحافات. كل واحد منهم خلع سترته وشمر رجلى البنطلون وغسلوا الحمامات. آه. عشرة أيام بالتمام.

الكتبة الثلاثة تركوا ما بأيديهم وراحوا يسمعون.

- وفى يوم بعتوا لنا واحد. معتقل واحد. الخبر كان وصلنا قبلها بساعات. ومحدش صدق. عقيد المعتقل نفسه ضرب كفا بكف وقال:

- «دول بيهرجوا».

الزبون الجديد وصل. أول ما دخل الساحة رجع خطوة والثانية. منظرنا كان يخوف. قوة المعتقل كلها خرجت تشوفه، الحراس واقفين فى شكل صف يبحلقوا فيه. الضباط فى الطرقة واحد وراء الثانى وعيونهم عليه. حتى العقيد وقف بباب مكتبه. واحنا الكتبة – أشار إلى الثلاثة – كان غيركم هنا – خرجنا نشوف قطرة المطر اللى نزلت. الزبون واقف، يبص هنا وهنا وما يتحركش. الحارس اللى جاء به وقف وراءه ساكت. شوية والعقيد دخل مكتبه. وإحنا كمان. بصينا عليه من فتحة الباب شفناه قاعد أمام العنبر وبابه مفتوح. بصينا بعد شوية نفس القعدة. والحراس واقفين على بعيد. ولا واحد يقرب منه أو يكلمه. قالوا بعدها إنه فيه حاجة لله. وصحيح. الجدع كان شكله طيب قوي، موش بتاع مشاكل. زى لقمة عيش تشوفها فى الشارع تبوسها وتحطها جنب جدار. ساعة والثانية وخبط على باب المكتب، ومفيش حارس منعه:

- ادخل:

دخل. بصينا له موش مصدقين. قال:

- أقعد معاكم شوية؟

أشرت لكرسى جنب الباب. قعد. حاجة خلتنى من غير ما أفكر أعزم عليه بسيجارة أخذها، وواحد فى المكتب عمل له شاي. شربه. كل ده

وهو ساكت. لا يبص هنا ولا هنا. شوية وسألني:

- لو سمحت. أنا هنا ليه؟

أقول له إيه : احنا ما نعرفش. كل اللى قلته:

- شدة وتزول.

وخرج. شفناه بعدها ماشى فى المعتقل. رايح. جاي.

كل يوم يمر علينا، يصبّح ويمشي. ويقعد مع الحراس، اللى يرضى منهم. أكثرهم كان يخاف منه. ويلعب السيجة مع واحد أو اثنين. ويمر على الضباط فى المكاتب يصبح عليهم. وكان هنا حارس امرأته حامل، دخل علينا الصبح يهلل ومعاه حلويات:

- مراتى جابت الولد. بعد أربع بنات. الجدع ده بركة.

كان يعمل مهندساً فى شركة. من نفسه لم يطلب شيئاً يخالف التعليمات. نقول له:

- ادخل.

ويدخل. وبدأ يساعدنا فى الشغل.

- انسخ الصفحتين دول.

كان خطه حلو. يقعد جنب المكتب وينسخ.

على هذا الحال شهر كامل. وجاء الأمر من الإدارة بالإفراج عنه. وليه؟

اعتقلوه غلط. كان المقصود واحداً غيره. جرى معه التحقيق، وأرسلوه لمعتقل آخر.

***

يومى الأخير فى العمل.

سلمت عهدتي. وأخلوا طرفي. أعطانى الباشكاتب ورقة بذلك. أعطانى أيضاً شهادة تقدير عليها خاتم الدولة تشيد بحسن سيرى وسلوكى أثناء الخدمة. قال:

- علقها فى البيت.

صافحنى بشدة. وخرجت من مكتبه.

وقفت فى الطرقة ألقى نظرة أخيرة على المعتقل. أكثر من شجرة مالت سيقانها لم ألحظها من قبل. وأشجار أخرى ظهرت مازالت سيقانها صغيرة. وأعشاش غربان على فروع الأشجار العالية. العنبر مفتوح على سعته، المعتقلون بداخله. فى مثل هذا الوقت من النهار يتذكرون أيام صباهم وشبابهم ويحكون. كل واحد له نصف ساعة. يقف ويحكي. الآخرون قاعدون حوله.

شلبى فى الخارج ينتظرني. صمم على الحضور:

- ده يوم فى العمر.

سبقنى فى التقاعد بشهرين.

هذه المرة خرجت من باب المعتقل. كان واقفاً فى ظل السور. مشينا.

قال:

- تقول إيه فى شوية شاى على القهوة. وبعدين تروح بيتك.

المقهى الصغير على المحطة. لم أره من سنوات. هو الآخر يعانى فى شيخوخته. اللافتة فوقه بهت لونها، واختفت حروف من الكلمات بها. تؤرجحها الريح فى صوت مسموع. قلت وأنا أجلس على مقعد متهالك:

- كل حاجة لها عمر.

- لا يزيد ولا ينقص.

وقال: فاكر بيومي. كان معاك فى السجن؟

- عارفه.

- مات إمبارح. أصغر منى بسنتين.

- سمعت صراخ بالليل.

- هو.

- سبحان الله. ماكانش يقبلني. وليه ما أعرفش.

- ولا كان يقبلني. وبرضه ليه ما أعرفش.

- ده حال الدنيا.

- وعارف سعد الدين. كان معاك برضه فى السجن؟

- مات؟

- لا. مراته. النهاردة الصبح.

- صغيرة.

- ماتت فى الولادة.

شربنا الشاى وقمنا. شلبى لم يتغير. منذ عرفته وهو يحمل الكثير من الحكاوى يجمعها أثناء تجواله. يحس بالواقعة قبل أن تكتمل، ويقف قريباً منها، يراها تأخذ مداها. يهز رأسه راضياً

ويمضي.

يوماً كان يمشي في شارع البلوك الرابع. بيت أمامه أولاد يلعبون. صبيان وبنات. سمع واحداً منهم يقترح لعبة عريس وعروسة. كان تجاوزهم بخطوات. توقف ملتفتاً إليهم. ولد وبنت في الخامسة وقفا جانباً والأولاد يعدونهما للزفاف. ظل واقفاً وضحكة ساكتة على وجهه. البنت رقدت على بطنها، والولد فوقها. واحد غير شلبي كان سيرى في ذلك نهاية الواقعة ويمضي. شلبي غاوي الحكاوي توقع أكثر من ذلك وانتظر. الولد فوق البنت يفعل كما الجدي مع العنز، ومأمأ مثله. شلبي في وقفته لمح جدياً مربوطاً في شباك البيت المواجه، وخطر له أنه بيت الولد. مدت امرأة رأسها من باب البيت الذي يلعب الأولاد أمامه. كادت تسحب رأسها للداخل حين لمحت الولد فوق البنت. صرخت:

- يا ابن الكلب.

في قفزتين كانت عندهم وشدت الولد من قفاه. الولد من فزعه تشبث بالبنت فتمزق كتف جلبابها. زاد غضب المرأة. زمجرت وقذفت الولد. سقط بشدة، وجرح حاجبه. الولد ساكت ينظر للمرأة وشتائمها تتلاحق، لمس حاجبه ورأى الدم في يده فانفجر صراخه. البنت كانت واقفة في قبضة أمها تختلس النظرات إلى أصحابها، يتبادلون الابتسام ويخفونه بأيديهم، حين ارتفع صراخ الولد صرخت هي الأخرى. الأم الغاضبة ضايقها صراخ البنت فصفعتها. خرجت امرأة من البيت المربوط أمامه الجدي، اندفعت إلى الولد تكتم الجرح بيدها وترد على شتائم المرأة. اشتبكتا.

- خناقة يا سالم عجب. مفيش ضرب. كل واحدة راحت تشد شعر الثانية وتصرخ. أنا شفت كده مشيت.

حين تكثر الحكاوى عنده يبحث – كما قال لى – عن واحد يحكى له. يختاره بمزاج يقدر ويفهم حتى تكون القعدة حلوة. كنت واحداً من أربعة اصطفاهم لحكاويه. لم يفصح عن الثلاثة الآخرين. من ناحيتى لم أسأل عنهم. يكفى أنه اختارني.

***

شغلتنى أعمال ترميمات فى البيت. كنت أؤجلها من يوم للثانى فزادت. بدأت بدورة المياه بعدها درجات السلم – سقطت امرأتى من فوقها أربع مرات وقالت مهددة إن فى الخامسة نهايتها – ثم السطح، وكنت جمعت فى ركن البلاطات المخلوعة من أرضه، برج الحمام كان سقط جانب منه، واكتشفت أنه يكاد يكون خالياً، به ثلاثة أزواج حمام تخلفت من عشرين، الأوعية فى البرج خالية من الحب والماء، نسيت فى الشهر الأخير أن أصعد إليه.

يأتى شلبي، يجلس منطوياً بعيداً عن الهدم. لا يسرد شيئاً من حكاويه، ولا يبدو راغباً فى ذلك. بعد قليل يحكى ما رآه أثناء مجيئه. المجارى التى طفحت أمام البلوكات ومياهها تنساب فى الشوارع. الكل يسد أنفه ويمشى ملتصقاً بالجدران. هو تعب من السير لصق الجدران، خدوش فى يديه ووجهه، وطول الوقت يخشى أن تنزلق قدمه. لا يعرف كيف سيعود. ربما ذهب إلى المقهى.

أنام مبكراً وأصحو مع طلعة الفجر، شيء يوقظني. أستعيد اللحظات الأخيرة وأنا بين النوم واليقظة وما أكون رأيته فى أحلامي. أكاد أكتشفه ثم يتوه منى بين رؤى تتزاحم.

أجدنى أغادر الفراش، أود لو أعود للنوم، أمشى على طرفى قدمي، وأكون لمحت عينى امرأتى مفتوحتين تنظران نحوي.

أتربع فوق البوفيه الملاصق للنافذة. أفتحها. يأتينى الهواء منعشاً. عتمة رقيقة مازالت تخفى معالم الأشياء. ندى خفيف يلمس ذراعى الممدودة للخارج، بخار يتصاعد. يحلق فوق البيوت. سحابة صغيرة منه تتجه ناحيتي. تنساب فى ليونة وتدخل من النافذة. تذكرنى بالحمامة الصغيرة تلتقط الحب من فمي. لا أدرى السحابة فى الحجرة، أحس بها تحيطني. ملمسها يضحكني. أرى شلبى وقد انشقت عنه العتمة. رافعاً رأسه نحوي. ربما كان حلماً. أكلمه فى صوت خافت ولا يرد. يلبس بدلته الميري، ينظر خلفه، وألمح كلباً يعبر الشارع.

***

كتب للمؤلف

مجموعات قصصية

١ـ الكبار والصغار	عام 1967
٢ـ حديث من الطابق الثالث	عام 1970
٣ـ أحلام رجال قصار العمر	عام 1984
٤ـ هذا ما كان	عام 1988
٥ـ منحنى النهر	عام 1992
٦ـ ضوء ضعيف لا يكشف شيئاً	عام 1993
٧ـ ساعة مغرب	عام 1996
٨ـ محابيس	عام 2002
٩ـ الشرطي يلهو قليلاً	عام 2003

روايات

١ـ التاجر والنقاش	عام 1976 هيئة الكتاب
٢ـ المقهى الزجاجي	عام 1979 هيئة الكتاب
٣ـ الأيام الصعبة	عام 1979 هيئة الكتاب
٤ـ بيوت وراء الأشجار	عام 1993 الآداب
٥ـ صخب البحيرة	عام 1994 هيئة الثقافة

٦ ـ أصـوات الليل	عام 1998 دار الـهلال
٧ ـ ويأتـى القطـار	عام 1999 دار الـهلال
٨ ـ ليال أخرى	عام 2000 الآداب
٩ ـ فردوس	عام 2007 الآداب
١٠ـ أوراق العائلة	عام 2003 دار الـهلال
١١ـ الخالدية	عام 2004 الآداب
١٢ـ دق الطبول	عام 2005 الآداب
١٣ـ جوع	عام 2007 الآداب

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٤٥٤٤

الترقيم الدولى : 977-08-1372-9

بطاقة فهرسة

البساطى ، محمد.

أسوار/ محمد البساطى . ـ

ط ١ . ـ القاهرة : دار أخبار اليوم

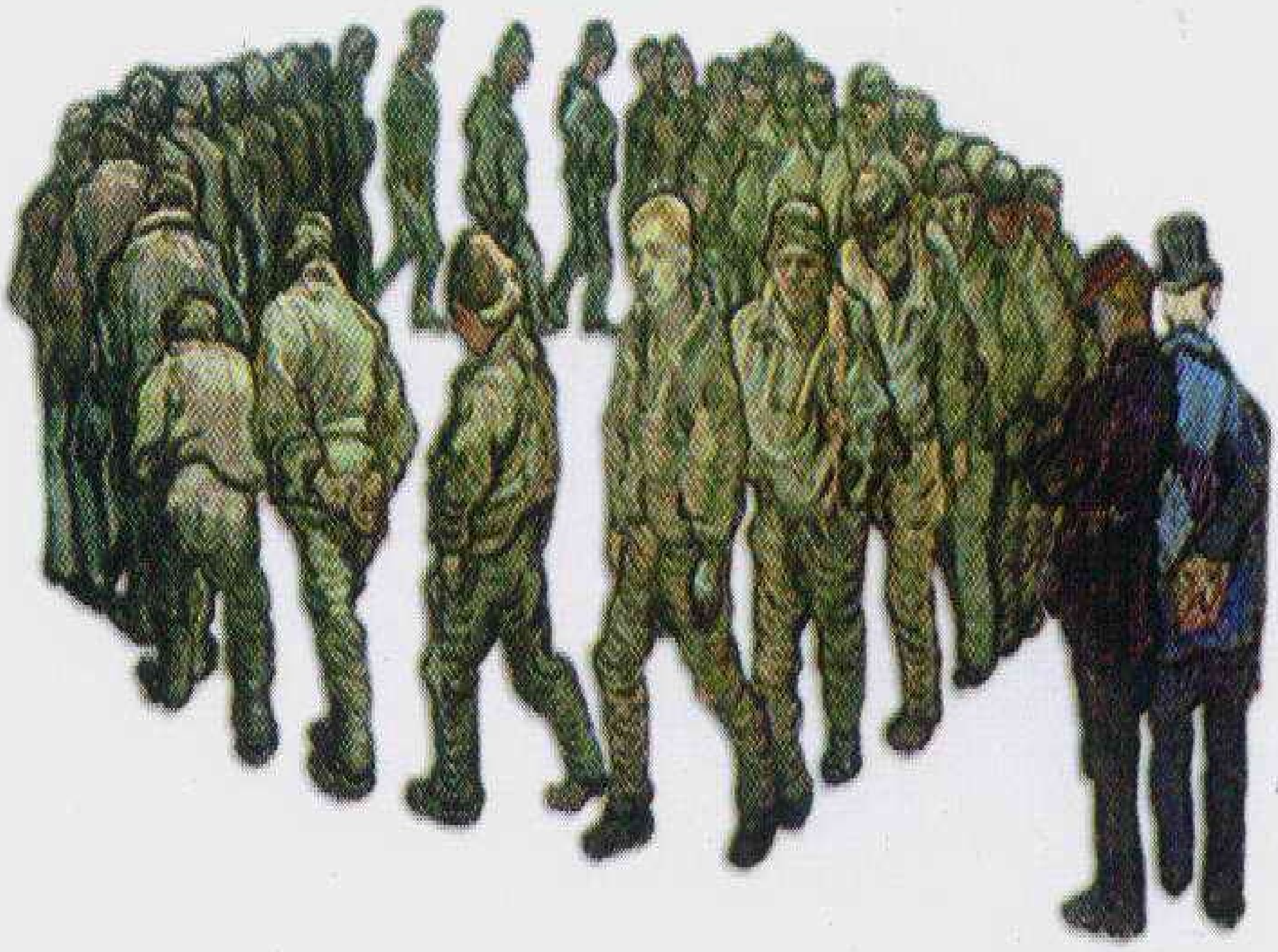
. قطاع الثقافة . ٢٠٠٨ .

١١٢ ص : ٢٠ سم .

تدمك ٩٧٧٠٨١٣٧٢

١ ـ القصص العربية

أ العنوان ٨١٣



يخوض محمد البساطي في هذه الرواية مغامرة كتابية جديدة، حيث يقدم عالم السجن القاسى ، وأسواره العالية، ويرسم علاقات البشر فيه، المحكوم عليهم بالاعدام، والحراس، والضباط ، والمأمور ، وحتى جيران السجن أصحاب البلوكات ، والطقس السيىء الذى يتضافر مع أشياء أخرى لإضفاء الصرامة على هذا العالم .

وكعادته يهتم البساطى بكافة التفاصيل التى ترسم لوحة مرعبة للعالم الرمادى الكئيب، عالم السجن، من خلال الراوى الذي سعى والده لتعيينه بديلا له فيالسجن بعد إحالته للتقاعد، فشل الراوى فى التعليم واتجه إلى السجن ليبدأ التعلم من أكثر المدارس قسوة فى المجتمع !